مكتبة
الأسرة
1999

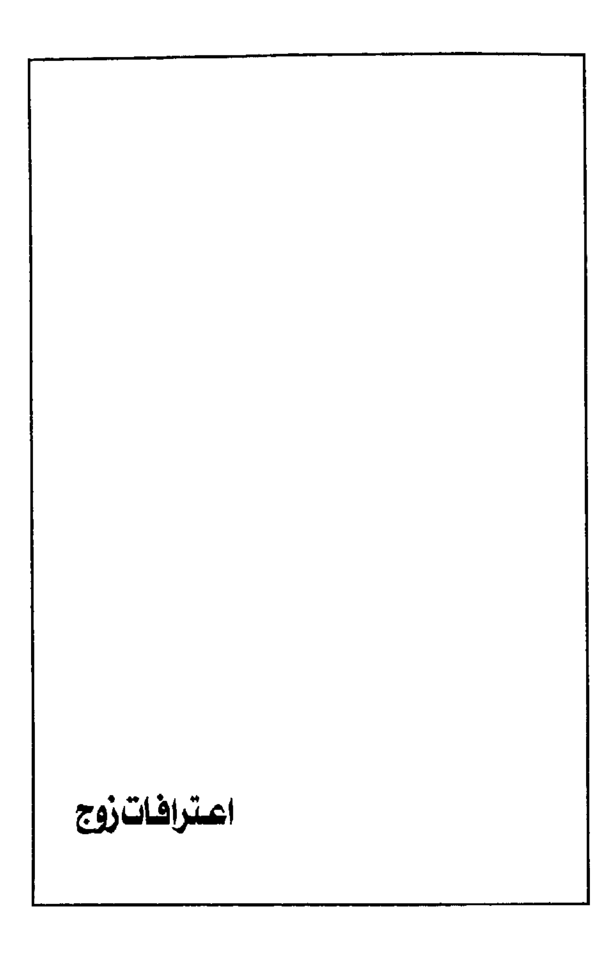
مهرجان القراءة للجميع

الأعمال الخاصة

اعترافات زوج

علي سالم

الهيئة المصرية
العامة للكتاب



اعترافات زوج

اعترافات زوج

علـى سـالـم



مهرجان القراءة للجميع ٩٩

مكتبة الأسرة

برعاية السيدة سوزان مبارك

(سلسلة الأعمال الخاصة)

اعترافات زوج

علي سالم

الجهات المشاركة:

جمعية الرعاية المتكاملة المركزية

وزارة الثقافة

وزارة الإعلام

وزارة التعليم

وزارة التنمية الريفية

المجلس الأعلى للشباب والرياضة

التنفيذ : هيئة الكتاب

الغلاف

والإشراف الفنى:

الفنان: محمود الهندى

المشرف العام:

د. سمير سرحان

على سبيل التقديم

وتمضى قافلة «مكتبة الأسرة» طموحة منتصرة كل عام، وها هى تصدر لعامها السادس على التوالى برعاية كريمة من السيدة سوزان مبارك تحمل دائمًا كل ما يثرى الفكر والوجدان ... عام جديد ودورة جديدة واستمرار لإصدار روائع أعمال المعرفة الإنسانية العربية والعالمية فى تسع سلاسل فكرية وعلمية وإبداعية ودينية ومكتبة خاصة بالشباب. تطبع فى ملايين النسخ التى يتلقفها شبابنا صباح كل يوم .. ومشروع جيل تقوده السيدة العظيمة سوزان مبارك التى تعمل ليل نهار من أجل مصر الأجمل والأروع والأعظم.

د. سمير سرحان

□ فى رحلة الحياة الطويلة القصيرة، قابلت أزواجا سعداء وآخرين تعساء. وتكلم كل واحد منهم معي بصدق، وكأنه جالس علي كرسي الاعتراف.

وأعترف أنني لم أهتم كثيرا بالأزواج السعداء، فقد كان اهتمامي منصبا علي هؤلاء الذين يعانون من حالة الجفاف العاطفي والحياتي بهدف الوصول إلي تصور واضح عما يمكن تسميته بالسعادة الزوجية.

إن التعرف علي مصادر الألم قد يساعدنا علي تجنبه أو علي الأقل تخفيفه، والظلام الحالك قد يجعلنا أكثر استمتاعا بضوء النهار.

كما أن اكتشاف مصادر التعاسة عند الآخرين قد يجعلنا أكثر حرصا علي إسعاد هؤلاء الذين اختارهم القدر أو اخترناهم نحن لمعاشرتنا.

وإذا تمكنت صفحات هذا الكتاب من إشاعة الحب والرقة والتهذيب والفهم المشترك في بيت واحد في المنطقة العربية كلها. فسوف أشعر بالتأكيد أنني قد أنجزت أمرا هاما.

على سالم

زوجتى والبطاطس

انتهت التمثيلية التليفزيونية، وعلى الفور ظهرت حسناء باهرة الجمال تقدم إعلانا عن البطاطس المقلية المعبأة فى أكياس البلاستيك الأنيقة. عند ذلك صاح صاحبى فى رعب صيحة اهتزت لها جدران البيت وانخلعت لها قلوب الجالسين ثم خر مغشيا عليه.

فشلت جهودنا فى إفاقته فنقلناه على الفور لمستشفى قريب، وهناك أحاط به فريق من أمهر الأطباء المعالجين تمكنوا بعد جهود جبارة من إفاقته وانعاشه بعد أن كان قد أوشك على الموت.

وبدأ صاحبنا يتحدث فى ضعف شديد:

فى العام الماضى ظهرت فى الأسواق «حلة» من نوع جديد. تقلى كل شىء فى سرعة وإتقان وبها «فلتر» ينقى أبخرة الزيت المقلى. هذا ما كانت تقوله حملة الاعلان القوية التى ظهرت فى التليفزيون

والجرائد والمجلات وملصقات الشوارع. ألحت زوجتى فى شراء هذه «الحلة» لأن الأولاد يحبون البطاطس المقلية ويلتهمونها بكميات كبيرة. كما أنها «الحلة» ستوفر لها وقتا طويلا تضيعه فى المطبخ. وبذلك تجد وقتا أوفر تصرفه فى العناية بى. استسلمت فى النهاية واشتريت «الحلة».

كانت «حلة» غريبة بالفعل، مرصعة بالأجهزة الصغيرة المعقدة والأزرار والمفاتيح والمؤشرات والعلامات الحمراء والصفراء والخضراء والزرقاء. كأنها قمرة فى سفينة فضاء صغيرة. هذا بالاضافة لكتيب صغير باللغة الألمانية يحوى رسومات تفصيلية تشرح الطريقة المثلى لاستخدامات «الحلة» وتشغيلها، كما يحذر من طريقة التشغيل الخاطئة.

سعدت زوجتى «بالحلة» وفرحت فرحا كبيرا وامتلأ البيت بالبهجة والحبور إلى الدرجة التى فكرت فيها أن احتفل بمثل هذا اليوم فى العام القادم واسميه عيد «الحلة». بل - وأصارحكم القول - لقد فكرت فى لحظة أن أرسل اقتراحا بذلك لعم مصطفى أمين لتعميم هذا العيد من أجل بعث البهجة. والفرحة والحبور والبطاطس المقلية الوفيرة، فى كل بيت مصرى.

غير أن فرحتنا جميعا تحولت لنكد وغم ثقيل عند تجربة «الحلة» فى المرة الأولى، فى الافتتاح أو «البريمييرا» بلغة أهل المسرح.

هناك خطأ فى «تكنولوجيا» الحلة، يجعلها تقلى البطاطس فى وقت أطول من المقلاة العادية. ويبدو أيضا أن «الفلتر» كان يعمل بطريقة

عكسيـة، إذ امتـلأ المطبخ بأبخـرة الزيت المقلى الذى مـالبث أن تحـول لسحاب كثيف خانق ملأ الشقة كلها ثم تسرب للعمارة مما دفع بعض السكان إلى المجيء للاستـفسار عـمـا حـدث، ووجـدنا أنفـسنا بالطبع مطالبين بشرح القصة كلها لهم (كنا نشرح الحكاية من جديد كلما جاء أحدهم) واتضح أن كلا منهم خبير «حللى» لذلك انهمرت علينا النصائح والارشادات المتضاربة.

استعنت بصديق يجـيـد اللغـة الألمانيـة، وبعـد أن رجع لقـواميسـه ومراجعه، أخبرنا بالنبأ المفزع «الفلتر» عمل بطريقة عكسية لأن مؤشر التنقية لابد أن يصل للعلامة الخضراء، أما مؤشر القلى فيجب أن يصل للعلامة الزرقاء، وقبل إلقاء البطاطس فى الزيت. ويجب الحرص على انتشال البطاطس قبل وصول المؤشر للعلامة الحمراء بعلامتين، وكل ذلك لن يحدث إلا باستخدام شعلة بوتاجاز قوية لا تتوافر فى البوتاجاز القديم الموجود لدينا.

باختصار، اشتريت بوتاجازا جديدا، كبيرا وقويا، من النوع الذى تستخدمه المطاعم. على أن سوء الحظ لازمنا، فلم يدخل البوتاجاز الجديد من باب المطبخ الضيق بالرغم من كل الجهود المبذولة منا ومن الجيران.

فى النهـاية وضـعناه فى ركن من غـرفـة الصـالون وبدأت الخطة الخمسية الأولى للقلى. أصبحنا نأكل كل شىء مقليا. البطاطس والسمك

واللحم والأرز والعدس والفول، كل شيء في حياتي أصبح مقليا. بدأت تهاجمني كوابيس أرى فيها كل شيء مقليا، الشوارع والبيوت والأتوبيسات والجبال والروابي والوديان والحقول والأنهار والمحيطات. إن منظر البوتاجاز وفوقه تلك الحلة اللعينة وهو رابض في ركن الصالون كان يقترب بي من الجنون شيئا فشيئا. لابد من إدخاله إلى المطبخ مهما كان الثمن.

بعد عمليات بحث مضنية تدخل فيها وزير الأشغال شخصيا، رضى أحد المقاولين أن يتولى عملية توسيع باب المطبخ بعد أن طلب مبلغا من المال كان يكفي منذ عدة سنوات لبناء «فيلا» جديدة.

أخيرا حدثت المعجزة واستقر البوتاجاز داخل المطبخ. غير أن زوجتي طلبت من المقاول أن يترك باب المطبخ متسعا كما هو لكي نتمكن فيما بعد من إدخال الثلاجة الحديثة الكبيرة التي بدأت تظهر الاعلانات عنها في السوق والتي تنوي شراءها قريبا، بمعنى أصح، التي تنوي إكراهي على شرائها قريبا. إنها ثلاجة ذات ميزة فريدة مدهشة، إذ توجد بها خانة توضع بها الأشياء المقلية وتحتفظ بها دافئة بينما كل شيء بارد حولها. فضلا عن أنها تعمل بالكمبيوتر. هذا ما كانت تقوله حملة الاعلانات القوية المكثفة.

وجاءت الثلاجة، فاتضح أن المطبخ لا يتسع لها والبوتاجاز معا. فخرج البوتاجاز اللعين وفوقه الحلة الجهنمية مرة أخرى إلى غرفة الصالون.

أخذت أتردد على أطباء الأعصاب والعلاج النفسى، فقد بدأت تنتابنى حالات رعشة شديدة لمجرد سماع كلمة بطاطس. أما رؤيته، فقد كانت تصيبنى بحالة إغماء وهبوط شديد فى القلب وبقية وظائف الجسم الحيوية.

كان صاحبى يتكلم بينما أنا أفكر فى كلمات قرأتها للأديب الايطالى «البرتومورافيا» (أن الغرب يدفع الناس لحالة من جنون الاستهلاك عن طريق حملات الدعاية والاعلان. فالمصانع مثلا تخترع حذاء جديدا يصدر موسيقى ناعمة عندما ترتديه. ثم يلح عليك بالإعلانات إلى أن تشعر بالتعاسة الشديدة لأنك لا تمتلك هذا الحذاء وبطريقة أو بأخرى تحصل على المال اللازم لشرائه. عند ذلك يقوم بتقديم سلعة أخرى تعقبها هجمة إعلان شرسة أخرى.. وهكذا).

استرد ساحبى أنفاسه، استجمع قواه، وعاد للكلام فى ضعف:

حدثت الكارثة عندما دخلت على زوجتى ذات مساء فوجدتها تمسك بمجلة وتقول لى بفرحة:

تصور.. لقد شاهدت إعلانا جذابا عن «حلة» جديدة.. تقلى البطاطس، وتسلقه أيضا.

بالضبط لست أذكر ما حدث بعد ذلك.. أو كيف حدث.. فتحت نوافذ الشقة وأخذت ألقى بكل أثاث المنزل إلى الشارع، مبتدئا بالحلة طبعا.

انتقلت زوجتى والأولاد إلى بيت أبيها. وانتقلت أنا إلى المستشفى بواسطة الجيران الطيبين. استغرق علاجى عاما كاملا حتى سمح لى الأطباء المعالجون بالخروج.. كنت أظن أننى قد شفيت تماما من عقدة البطاطس، غير أن الاعلان الأخير الذى شاهدته معكم أثبت أننى مازلت أعانى من نفس المرض.

تركته حزينا، وبعد يومين ذهبت لأعوده، فوجدته ميتا. قالت لى الممرضة أنه قد مات منذ خمس دقائق فقط، بهبوط حاد مفاجىء فى القلب، لا يعرف له الأطباء سببا.

خرجت من المستشفى حزينا بعد أن عرفت السبب، كانت الممرضة تمسك بكيس صغير أنيق من البلاستيك الملون، ملىء برقائق البطاطس المقلية، كانت تقرقشها فى استمتاع.. المسكين لم يتحمل المشهد من إنسانة المفترض فيها أنها من ملائكة الرحمة.

رحمنا الله جميعا فى عصر الاستهلاك وأعاننا على مقاومة حملات الاعلانات الشرسة.

كذبة بيضاء

لم يحدث من قبل أن كذبت على زوجتى. ليس لأنى فى غاية الشجاعة أو فى منتهى الاستقامة والوضوح ولكن وبكل بساطة، لأن ظروفى لم تحتم على أو لم تدفعنى أن أكذب عليها أكاذيب بيضاء أو منقوشة أو كاروهات أو من أى لون آخر. فهى تعرف إيرادى الشهرى بالضبط، وتعرف جيدا طبيعة عملى، والأماكن التى أتردد عليها والأصدقاء الذين أسهر معهم أحيانا إذا حدث أن سهرت خارج المنزل.

كنت أستمع لأصدقائى وهم يحكون - ضاحكين - الأكاذيب البيضاء التى يكذبونها على زوجاتهم، وكنت أضحك معهم شاعرا بالتفوق لأننى أفضل منهم، ولكن بمرور الوقت تحول هذا الشعور بالتفوق إلى شعور بالنقص، حياتى تخلو من الأكاذيب البيضاء. لابد أن يكون لى أنا أيضا أكاذيبى الخاصة البيضاء، على الأقل كذبة واحدة، أفك بها عقدتى، وأتخلص بها من شعورى بالنقص فى مواجهة

زملائى الكذابين البيض. وأخيرا جاءتنى الفرصة على طبق من الفضة.

ذات مساء. وأنا داخل مكتبى، حانت منى التفاتة إلى غرفة الانتظار فوجدت سيدة حسناء ترتدى ثياب الحداد وتنظر أمامها ساهمة فى حزن. كانت نظرتى الخاطفة إليها كافية لكى أتبين معالمها، تلك المعالم التى قمت بتلخيصها تلخيصا مخلا عندما استخدمت فى وصفها كلمة (حسناء) فقط، الواقع أن المرء بحاجة لكى يكون طه حسين أو نجيب محفوظ لكى يجد لديه محصولا وافرا من الألفاظ يصف به هذه السيدة الجميلة، الأكثر من جميلة.

أخبرنى الساعى أنها تريد مقابلتى.

– مقابلتى أنا؟

– نعم، تقول إنها أرملة أحد أصدقائك.

دار عقلى بسرعة، أرملة صديق؟ .. لم يحدث أن أحدا من أصدقائى قد مات قريبا.. كما أننى أعرف كل زوجات أصدقائى الأحياء والأموات لأننا نتزاور عائليا.. قد يكون أحد معارفى.. على العموم، دعها تدخل.

الآن هى جالسة على الكنبة المواجهة لمكتبى.. تحولت نظراتى لطيور بيضاء رقيقة تحط فى رفق على تفاصيلها الرقيقة الساحرة.

هذا النوع من الأناث لا تراه إلا مرتديا ثياب الحداد. فمن المستحيل وأزواجهن على قيد الحياة، من المستحيل أن يسمحن لأحد بأن يراهن.

تكلمت أخيرا فى ابتسامة عذبة يغلفها الحزن النبيل. وبصوت هو أقرب لتغريد البلابل وصليل الأجراس الفضية الصغيرة.. : أنا أرملة المرحوم عبد الله القللى الذى كان زميلك فى البعثة فى إنجلترا.

ياه.. إنجلترا..؟ البعثة؟.. خمسة وعشرون عاما مرت على عودتى من البعثة.. القللى؟ .. القللى؟ .. فشلت فى تذكر شخص بهذا الأسم، كما تذكرت أن بعثتى كانت فى أمريكا وليس إنجلترا.. ولكن أى أهمية لذلك الآن؟ قلت لها بحماس: نعم .. نعم .. القللى .. القللى .. كيف أنساه؟ لم تكن نفترق أيام البعثة.. ولكنى .. لم أشاهده منذ سنوات طويلة.. كيف حاله أقصد ليرحمه الله.. كان ذوقه جميلا فى كل اختياراته.. ليرحمه الله.. تحت أمرك ياسيدتى.

سكتت للحظات، وبدا عليها الحرج، فقلت لها مشجعا:

أرجوك ياسيدتى.. لقد كان القللى من أعز أصدقائى، وفى لندن لم يكن يخفى عنى سرا.. أنا أيضا لم أكن أخفى عنه أى شىء من تفاصيل حياتى.. أرجوك.. حدثينى بصراحة..

قالت وعيناها مغرورقتان باللآلىء، أقصد الدموع: كان مغامرا.. أضاع كل ثروته وثروتى فى البورصة وسوق الأوراق المالية.. ولم

يتحمل.. فمات.. ليس أمامى إلا أن أبيع الفيلا وأبحث عن سكن متواضع.. فهل أجد لديك مشتريا؟

- لا مشكلة في ذلك ياسيدتي.. سوف أكلم أصدقائى سماسرة العقارات.. وسوف نجد مشتريا يدفع مبلغا طيبا.

قالت: هناك أمر آخر.. لدى معاطف فراء كثيرة وملابس.. كلها مشتراه من بيوت الأزياء العالمية وبعضها مصمم خصيصا لى.. أريد أن..

عند ذلك فقدت تماسكها وأجهشت فى البكاء بحرقة.. انتقلت إليها على الفور لأهدىء من روعها وأطيب خاطرها وأمسح دموعها.. كان الله فى عونها.. من الواضح أنها كانت فى حاجة لنقود.

على الفور قلت لها: بنت حلال.. لى صديق يريد شراء معطف من الفراء لزوجته.. فإذا كنت حقا تنوين التخلص منها، فيسعدنى أن يكون لصديقى نصيب فى واحد منها.

فقالت: إذا تفضلت أرسل الساعى يحضر سائقى.. معى فى السيارة ثلاثة معاطف.. اختر منها واحدا.

جاء السائق ومعه المعاطف الثلاثة، اخترت واحدا منها شاهق البياض، قالت لى: ذوقك جميل.. هذا هو أفضلها، أشتراه لى زوجى فى العام الماضى.. كان ثمنه خمسة وعشرين ألف دولار.. الآن ثمنه أكثر من ذلك بكثير ومع ذلك أنا على استعداد لأن أبيعه بخمسة آلاف دولار فقط. صدقنى لقد ارتديته مرة واحدة فى باريس.

على الفور كتبت لها شيكا بالمبلغ ثم انصرفت شاكرة بعد أن أعطتنى رقم تليفونها لكى أكلمها عندما أجد مشتريا للفيلا.

بعد انصرافى من العمل مررت بأحد أصدقائى وهو متزوج من سيدة من أسرة ارستقراطية عريقة.. تفهم فى أنواع الفراء كما أفهم أنا فى أنواع السمك. شهقت زوجة صديقى إعجابا وهى تتأمل المعطف: هو الآن ثمنه لا يقل عن ستين ألف دولار.. انتظر قليلا.. سوف أضعه لك فى علبة فاخرة.

أخيرا جاءت الفرصة لكى أكذب على زوجتى الكذبة البيضاء التى أحلم بها منذ وقت طويل، قلت لها إننى طلبت من أحد أصدقائى الذين يقيمون فى باريس أن يرسل لى بهذا المعطف الغالى لكى أقدمه لها بمناسبة مرور عشرين عاما على زواجنا.

سعدت زوجتى بالفراء سعادة من الصعب وصفها. وأخذت تبتهل إلى الله سبحانه وتعالى أن يرسل على الأرض موجة من البرد عاتية قارصة مصحوبة بالزمهرير والجليد لكى تتمتع بأرتدائه، وأخيرا استجابت السماء لدعواتها وجاءت الفرصة، موجة برد مصحوبة بالصقيع لم تشهدها البلاد منذ أكثر من مائتى عام كما قالت مصلحة الارصاد، عند ذلك قررنا – أو قررت هى – أن تزور عمتها.

بعد خروجنا من المنزل وقبل أن نركب السيارة، فوجئت بشخص يظهر أمامى فجأة، قال: هل أنت فلان؟

أجبته بالايجاب فقال باقتضاب: تفضل معنا.. أنت والمدام.

وجدت نفسى أنا وزوجتى فى سيارة الشرطة البوكس، وقد شل عقلى عن التفكير تماما. أدخلونا على ضابط المباحث الذى رحب بنا ثم طلب لنا مشروبا ساخنا ثم سألنى فجأة: من أين أتيت بهذا المعطف؟

استجمعت كل قدرتى على الكذب وأجبته: من فرنسا.. من باريس.. عاصمة المعاطف.. أقصد عاصمة فرنسا.. أرسله لى صديق..

قال بهدوء: اسمع هل تفضل ذكر الحقيقة؟ أم تفضل أن أوجه لك تهمة السرقة.. أم لعلك تفضل تهمة إخفاء أشياء مسروقة؟

قال ذلك وأخرج لى صورة فوتوغرافية كارت بوستال.. كانت الصورة للسيدة الحسناء.. هل تعرف هذه السيدة الحسناء؟ لا فائدة من الانكار، قلت باندفاع صادق: لقد شاهدتها مرة واحدة فى حياتى.. قالت لى إنها أرملة أحد أصدقائى فى البعثة واسمه القللى.. كانت فى حاجة لنقود فاشتريت المعطف منها.

فى هذه اللحظة نظرت لى زوجتى نظرة مرعبة، فنظرت إلى الأرض على أمل أن تبتلعنى. ولكن لم يحدث وظللت واقفا فى خجل وذلة وانكسار أمام الضابط وزوجتى.

خلعت زوجتى المعطف فى هدوء وألقت به على أحد المقاعد. قال الضابط: هى ليست أرملة، هى متزوجة من عبده رامبو لص المساكن الشهير.. واسمها سنية الشحات، واسم الشهرة سنية سوابق.. وهى تقود عصابة لسرقة الطبقة الارستقراطية. ثم تقوم بتصريف البضاعة بطرق

ذكية مستغلة جمالها وقدرتها على التمثيل.. و.. طمع بعض السذج فيها.. هذا المعطف مسروق من أسرة «عنايت» المعروفة.. الأمر يعتبر منتهيا بالنسبة لسيادتك.. هل تسمح بكلمتين فى المحضر؟

خرجت أنا وزوجتى من القسم فى تلك الليلة المشئومة، لم تكن هناك تاكسيات فى الشوارع، وبدأت السماء تمطر. كنت أرتجف من البرد والخجل، وكانت زوجتى ترتجف فى الغالب من البرد والغضب..كانت درجة الحرارة مليونا تحت الصفر.. واستطعنا الوصول إلى المنزل، أشعلت كل الدفايات وأدرت كل أجهزة التكييف بأقصى طاقتها، وبعد ساعتين قلت لها: أنا آسف.

ردت هامسة: لم يحدث ما يدعو للأسف.. أنها مجرد كذبة بيضاء كان القصد منها إسعادى.. ولكنى أريد أن أعرف منك شيئا آخر.. ماذا كنت تريد من هذه السيدة؟

قالت ذلك وهى تمد يدها فى اتجاه (فازة) كبيرة، ماحدث بعد ذلك ليس من حق القراء أن يعرفوه. فلم أبح به لمخلوق. حتى طبيب الاسعاف الذى عالجنى فى نفس الليلة فشل فى أن يعرف منى مصدر كل تلك الاصابات فى وجهى وجسمى.

استعدت رجولتى

اقترب من الستين. وهى المحطة التى يقذفون البشر عندها من قطار العمل إلى الشارع. أقصد يحيلونهم إلى المعاش. أحمد الله أننى لا أعمل فى الحكومة. ومع ذلك استولى على إحساس غامض بأننى على وشك أن ألقى نفس المصير، آسف، فلم أحدثكم عن نفسى بعد.

أعمل محاميا فى عاصمة عربية كبيرة. مكتبى به مجموعة كبيرة من المحامين والمحاميات الشبان والشابات. يعملون ليل نهار تحت إشرافى وتوجيهاتى لمواجهة سيل القضايا الذى لا ينقطع. ومع سيل القضايا يأتى سيل الفلوس.

وأنا فى صحة جيدة والحمد لله. يظننى من يرانى فى نهاية الأربعينات. ومع ذلك بدأ يخامرنى الاحساس بأننى لست أكثر من (خزانة) آدمية، هيكل آدمى يرتدى روب المحاماة الأسود، يعمل ليل نهار للدفاع عن حقوق الآخرين، بينما لاحق لى فى شىء سوى التعب

والاجهاد. حتى الفلوس لم أعد أشعر بطعم لها، أرقام تضاف إلى أرقام. أنجبت ولدين وبنتا واحدة، انتهوا جميعا من مرحلة التعليم شغلوا وظائف طيبة ثم تزوجوا جميعا، وأنا الآن أحيا أنا وزوجتى التى تقاربنى العمر. لن أكرر عليكم الأسطوانة المعروفة التى سمعتموها من قبل من كل الأزواج الذين قرروا فجأة الزواج من أخرى. لن أقول لكم زوجتى لا تفهمنى، أو أنها تضايقنى، أو أن الحياة معها لا تطاق، إلى آخر تلك الاتهامات أو الأعذار أو التعللات التى يسوقها الأزواج عندما يقررون الزواج للمرة الثانية.. لا.. فمازلت أتمتع بقدر من الأمانة العقلية يجعلنى أقرر أنها سيدة فاضلة ومهذبة بكل المقاييس.

ولكنى لم أعد أحبها.. بمعنى أصح لم أعد أشعر تجاهها بتلك الرغبة العارمة التى كنت أشعر بها منذ عشرين عاما أو حتى منذ عشرة أعوام.. هل تسمحون لى بأن أكون أكثر صراحة، أريد أن أتزوج من سوسن. نعم. لم يعد لى مطلب فى الحياة سوى أن أتزوجها، هذه هى قضيتى ببساطة. علما بأن فارق السن بيننا ليس كبيرا إلى الحد الذى يجعلنى أخجل من هذه الرغبة.. هى فى الخامسة والعشرين من عمرها، ولكنها ناضجة بحيث تظنها فى الثلاثين.

سوسن تعمل عندى محامية تحت التمرين. جميلة، بل طاغية الجمال. بمجرد أن تدخل حجرة مكتبى لتعرض على مذكرات القضايا تشتعل فى كل خلايا جسمى وعقلى نيران غير قابلة للانطفاء.

وذات ليلة استجمعت شجاعتى واعترفت لها بحبى وتقدمت لخطبتها. لست أعرف ليلة أخرى مرت على أو على أحد آخر بهذا الجمال وذلك السحر. لقد اعترفت هي الأخرى بأنها تحبنى، وبأنها كانت على وشك أن تصارحنى لو أننى أجلت اعترافى عدة دقائق.

لا تظنوا أننى رجل عاطفى، على العكس من ذلك أنا واقعى جدا وأعرف أن الزواج المبنى على العاطفة وحدها مصيره إلى الفشل. أما الزواج المبنى على حسابات الواقع فهو وحده القادر على الصمود فى مواجهة الزمن. كان لابد من تأمين مستقبلها فلا أحد يضمن أن يحيا حتى اللحظة التالية. لذلك اتفقت مع أسرتها على ما يلى:

(أ) أن أشترى لها فيلا وسيارة بأسمها.

(ب) أن أؤمن على حياتى لمصلحتها بمبلغ كبير.

(جـ) أن أضع فى البنك مبلغ مائة ألف دولار أمريكى وديعة بأسمها، ليضمن لها دخلا شهريا محترما.

(د) أن أكتب لها مؤخر صداق قدره خمسون ألف دولار.

ولكن عندما طالبوا منى أن تكون العصمة فى يدها رفضت بإباء. بل وصرخت فى وجوههم تعنفهم على هذا الطلب الغريب. وصاحت: أفهموا جيدا أنه هو الرجل وأنا المرأة.. أنه رجلى وسيدى وأنا زوجته وجاريته.

عند ذلك شعرت بالفعل أننى شاب فى الثلاثين من عمره.. ولكن.. ولكن آه من ولكن هذه.. لماذا آخترع البشر هذه الكلمة. ولكن فى ليلة

الزفاف حدث أمر غريب ومروع لست أملك له تفسيرا حتى الآن. فشلت، نعم فشلت. بكل ماتحمله هذه الكلمة من معان مهينة ومذلة، أما الأمر الذى سحقنى تماما فقد كان ما قالته لى سوسن، قالت باستنكار وبصوت غاضب: لماذا تزوجتنى إذن..؟ ألقت بى جملتها فى قاع الزمن.. أحسست أننى عجوز فى التسعين.

فى تلك الليلة اكتشفت فى زوجتى الأولى (صفة) لم أكن أظنها بهذا القدر من الأهمية.. هذه الصفة هى، التهذيب.

فقد يحدث كثيرا للرجل، أن يفشل، بسبب التوتر، أو الأجهاد أو لأى سبب من الأسباب.

حدث لى ذلك مرات عديدة فى سنى زواجى الطويلة. ولكن زوجتى كانت تحرص على أن يمر الأمر ببساطة وكأنها لم تفطن له، وكأن ما حدث أمر طبيعى تماما أو لا أهمية له.. وبذلك لم تكن تلك المسألة تمس كبريائى كرجل، فالرجولة أمر أشمل بكثير، ولكن سوسن بجملتها الصاعقة دمرتنى تماما.

تكررت المحاولة، وتكرر الفشل. وفى كل مرة كنت أتقدم فى العمر عشرة أعوام. عشت معها شهرا واحدا، ثلاثين يوما وأنا أشعر أننى شخص آخر. ضعيف، ذليل مهان، لا تجرؤ نظراتى على الالتقاء بنظراتها.

وتم الطلاق. وحصلت سوسن على المائة والخمسين ألف دولار والفيلا والسيارة وأصبحت تواجه مشكلة جديدة، مشكلة اختيار عريس من بين مئات الشبان الذين تقدموا ويتقدمون لها كل يوم طالبين يدها أو طالبين ثروتها.

أما أنا فقد استعدت زوجتى.. ومن الغريب والمدهش معا أننى استعدت رجولتى أيضا.

زوجتى محظوظة

بالرغم أن رسالتها للماجستير كانت فى علم الإدارة العامة إلا أنها وبكل المقاييس لم تكن من وجهة النظر الواقعية والعلمية تفهم فى الإدارة العامة أو الخاصة.

فما ندرسه فى الجامعات شيء وما نواجهه فى الحياة العملية شيء مختلف. ولو أننى طبقت فى عملى ما كانت تشير على به لأنتهى بى الأمر إلى الإفلاس الأكيد. ومع ذلك فقد شاء حظى التعس أنْ أترك لها مصنعى الصغير تحت رحمتها وتحت رحمة نظرياتها المتطورة فى علم الإدارة. أقول (نظرياتها) تأدبا، فلم تكن تحمل فى رأسها سوى ما يمكن تسميته بالخزعبلات الإدارية.

المصنع به أربع ماكينات كبيرة وعشرون عاملا وخمسة من الموظفين الإداريين. وهو مخصص لإنتاج نوع معين من الجوارب والملابس الداخلية القطنية. كنت أدير المصنع وحساباته وعمليات

تسويق الإنتاج بانضباط شديد محققاً قدراً معقولا من الأرباح، ولكنى بالرغم من كل انضباطى وحزمى فى الإدارة فوجئت بالمصائب تنهال على واحدة تلو الأخرى. ففى أسبوع واحد توقفت ثلاث ماكينات ولم نجد قطع الغيار الخاصة بها فى السوق، وقيل لى إن المصانع لم تعد تنتج هذا النوع من الماكينات أو قطع الغيار الخاصة بها، وقامت مصلحة الضرائب بتوقيع الحجز على المصنع مطالبة إياى بمبالغ رهيبة نتيجة لتقديرات جزافية عن أرباح خرافية لا يمكن أن يحققها مصنع فى حجم مصنعى، بالإضافة لتقلبات فى أسعار السوق وظهور منافسين أقوياء، أغلقوا مناطق بأكملها فى وجهى.. أما الكارثة الحقيقية، فكانت.. السجن.. نعم.. السجن.

تم اقتيادى من مصنعى وفى يدى القيود الحقيقية إلى السجن. لأننى خالفت مادة لا أعرفها فى قانون الاستيراد والتصدير فى المرة الوحيدة التى قمت فيها بتصدير بعض إنتاج المصنع. وبسبب إهمال موظف صغير فى البنك، أتهمت بالتهريب، وإلى أن يثبت القضاء براءتى، وأن مبالغ العملة الصعبة المطلوب تحويلها قد حولت بالفعل فى الموعد القانونى، كان لابد أن أقضى فى السجن ستة شهور.. نعم، ستة شهور كاملة.

أخيرا جاءت الفرصة لزوجتى لتجرب خزعبلاتها فى علم الإدارة الحديثة. كان من السهل بالطبع أن أتنبأ بما سيحدث لها وللمصنع.. إذا كنت أنا بكل خبرتى وانضباطى وفهمى انتهى بى الأمر إلى السجن،

فما بالك بما سيحدث لها بكل رومانسيتها وجهلها بالواقع الوحشى للحياة العملية.

أستر يا رب!

عندما كانت تزورنى لم أكن أحدثها عن المصنع فقد كنت أخشى أن تخبرنى بما يصيبنى بالسكتة القلبية، كنت مهتما بشىء واحد، التركيز على النضال لإثبات براءتى ثم الخروج من السجن لتصفية المصنع وإغلاقه للأبد.

فى لحظة خروجى من السجن كانت فى انتظارى. ذهبنا معا إلى المصنع وهناك كانت المفاجأة، كان المصنع يشغى بالحركة، والماكينات تدور بكامل طاقتها، فصلت خمسة عمال وقامت بتعيين عشرة، كما قامت بتعيين مهندسة صيانة شابة تولت عملية تصنيع كل قطع الغيار المطلوبة. كيف لم أتنبه لهذه الفكرة من قبل؟ بالفعل لابد من مهندس صيانة مقيم ودائم بدلا من الاستعانة بشركات الصيانة التى تقوم بعملها على طريقة تسديد الخانات. بالإضافة لذلك فقد استطاعت أن تحل مشكلة الضرائب وأن ترفع الحجز عن المصنع، ذهبت للمسئول وأغمى عليها فى مكتبه وعندما أفاقت انخرطت فى بكاء حاد يمزق نياط القلوب، ثم أثبتت للمسئول أن المصنع كان يحقق خسائر طوال العشرة أعوام الماضية. كما قامت بشراء ماكينة تقوم بطبع الصور الملونة على القماش وبذلك ظهرت فى الأسواق «فانلة» جديدة عليها صورة لاعب

كرة مشهور فى صبيحة اليوم التالى لإحرازه خمسة أهداف فى مرمى نادى الخصم وانهالت عليها آلاف الطلبات فتمكنت بذلك من تسديد ثمن الماكينة فى شهر واحد. كما رفعت أجور ومرتبات العمال والموظفين وأضافت بندا جديدا هو بند الحوافز والمكافآت، فحولت العمال إلى عفاريت أمام الماكينات، لدرجة أن ترحيبهم بى وتهنئتهم لى بمناسبة الإفراج عنى، لم يستغرق دقيقة واحدة عادوا بعدها لعملهم. قد تقولون أن زوجتى تفهم أكثر منى فى علم الإدارة.. وأقول لكم، لا..

أنا أفوقها فهما ووعيا ومعرفة، ولكنها تستطيع أن تفعل أشياء لا يقدر عليها الرجال، هل أستطيع أنا - أو أقبل - أن أنهار باكيا فى مصلحة الضرائب؟ هل يطاوعنى قلبى على فصل خمسة عمال لمجرد أنهم مهملون؟ هل أغامر بشراء ماكينة جديدة دون أن أقوم بعمل دراسة جدوى دقيقة لاحتياجات السوق..؟ لست أنكر أنها نجحت فى قيادة العمل فى المصنع فى غيابى.. ولكنها هى نفسها اعترفت فى تلك الليلة، بأن الحظ.. والحظ وحده كان وراء ذلك النجاح.

سهرة على مشارف الغابة

أعمل - أو كنت أعمل - مديراً للمشروعات فى شركة عالمية، ثم كلفت بالإشراف على مشروع بناء محطة كهرباء فى دولة من دول إفريقيا الوسطى التى استقلت حديثاً. ولما كان من الصعب أن تصحبنى زوجتى إلى هناك نظراً لخشونة المعيشة وقسوتها، لذلك فقد قررت أن أسافر وحدى - بالرغم من معارضتها - إلى ذلك المكان الاستوائى متحملا قسوة الوحدة وحياة العزوبية لمدة عامين مكتفيا بأن أرى زوجتى فى أجازاتى فقط، وكانت خمسة عشر يوماً كل ستة شهور تضيع منها ستة أيام فى الطيران جيئة وذهاباً.

سارت خطوات المشروع فى البداية فى طريقها الطبيعى طبقاً للجدول الزمنى الذى أشرفت على وضعه بنفسى إلى أن حدثت عقبات لم تكن فى الحسبان، ترتب عليها امتداد العمل فى المرحلة الأخيرة لعدة شهور مالبثت أن أصبحت عاماً كاملا دون أن يلوح فى الأفق ما يشير

إلى أننى سأتمكن بالفعل من إنهاء العمل فى تلك المحطة اللعينة، بل وبدأ يداخلنى إحساس غامض ومر بأننى لن أرى زوجتى أو بلدى مرة أخرى.

أصبحت نكد المزاج، متوتراً دائماً، أثور لأقل خطأ يرتكبه أحد العاملين معى، بالإضافة للأرق الدائم والكوابيس المزعجة التى تهاجمنى بمجرد أن أغمض جفونى.

وذات ليلة بعد مشاكل عصبية مع بعض العناصر البيروقراطية التى دأبت على تعطيلنا، دعانى أحد زملائى لقضاء سهرة خاصة صاخبة أروح فيها عن نفسى وأهدىء أعصابى الثائرة. كنت أعرف من قبل ماذا يحدث فى مثل تلك السهرات التى تقام عادة وسط الغابات أو على مشارفها وكنت حريصا على الابتعاد عنها، مكتفياً بالسهر فى نادى الشركة أو مع كتاب أو مع نفسى فى مسكنى بصحبة الفراغ والقلق.

لست أدرى أى شيطان هيأ لى أن ألبى الدعوة، المهم أننى ذهبت فى الموعد المحدد وهناك وجدت بعض الأوربيين من جنسيات مختلفة وبعض السيدات الافريقيات من هواة السهر والمرح. لم يعد أمراً هاماً أن أصف لكم وقائع هذه السهرة فإن مجرد تذكر ما حدث فيها بين أشجار الغابة الكثيفة وظلمتها فى جو صاخب وماجن ومنفلت، يشعرنى بأقصى درجات التعاسة والألم.

النظام العلاجى فى الشركة يقضى بأن يتم الكشف علينا دورياً كل شهر بواسطة طبيب مقيم، ولقد أحسست بارتياح كبير عندما كشف على

الطبيب بعد أيام من ذلك العمل وكنت سليماً تماماً من كل النواحى، حتى عينة الدم التى يحصل عليها منا بشكل دورى لتحليلها فى معمله الصغير، كانت أيضاً سليمة.. الحمد لله.. سليمة.. علىّ أن أحمد الله كثيراً ولا أعود لمثل هذه الحماقة. من يدرى ماذا يحدث لى فى المرة القادمة.

بعد مرور عشرين يوماً أرسل الطبيب يستدعينى، قال لى بهدوء: عندكم فى الشرق لا يصارحون المريض بحقيقة مرضه إذا كان خطيراً.. أما نحن فنرى العكس. فالأمانة العلمية تقتضى أن أصارحك.. يا صديقى أنت شخص متعلم وتعرف عن الحياة الكثير، إن عينة الدم التى حصلت عليها منك، لم تكن مطمئنة، لذلك أرسلتها إلى المعامل فى لندن.. وللأسف.

لم أستمع لبقية ما قاله الطبيب.. شعرت أننى أهوى في ظلام كثيف، لقد أصبت بالإيدز فى تلك الليلة الملعونة، استمر الطبيب يتحدث عن الإيمان بالله وعن القضاء والقدر ولكننى لم أكن فى حالة تسمح لى أن أتبادل معه الحديث أو أن أستوعب ما يقول.

أرسلت لزوجتى قسيمة الطلاق موثقة من سفارتنا ومن وزارة الخارجية. أرسلت لها أيضاً توكيلا معتمداً تتصرف بمقتضاه فى كل أملاكى وأموالى فى بلدى، مع الوثيقتين أرسلت لها أيضاً خطاباً من عدة سطور أبلغها فيه أننى تزوجت من أخرى ثم قدمت استقالتى من الشركة فقبلوها وصرفوا لى مكافأتى على الفور.. وأنا أعتقد أنها ستكفينى إلى أن أموت.

سيدى السفير..

لدى من الهدوء والشجاعة ما يجعلنى أطلب منك أن تقوم بتصوير هذا الاعتراف وأن ترسل منه نسخاً لكل أفراد الجالية التابعة لك. أننى أشكرك يا سيدى بكل قوة. لكل المساعدات التى قدمتها لى السفارة وأطلب منك - واعتبر هذا الطلب وصية - أن أدفن هنا.. بعيداً عن بلدى، نعم من الأفضل أن أدفن فى المكان الذى شاهد حماقتى الأولى والأخيرة.. تحياتى ووداعاً.

(ملحوظة: سعادة السفير ،ع.ص، أعطانى صورة من هذا الاعتراف للنشر. وأبلغنى أنه تم تنفيذ وصية ذلك الزوج التعس الذى توفى بعد شهرين فقط من كتابة هذا الاعتراف.. ولقد قال لى سعادته وهو يبتسم فى رثاء.. فى الغالب لقد مات من الندم .. ع.س).

زوجتى ليست مسئولة

أعترف يا سيدى المحقق أننى المسئول وحدى عما حدث. أنا الذى مددت يدى إلى أموال العمـلاء فى البنك وأخذتهـا، أو كما يقول قرار الاتهام سرقتها. لم تطلب منى زوجتى ذلك ولم تدفعنى إليه، وليست لديها أدنى فكرة عما فعلت. واعترافى هذا لم يجبرنى عليه أحد بتهديد أو وعيد أو ترغيب، فعندما استدعانى مدير البنك وسألنى عما فى دفاترى من أخطاء اعترفت على الفور بجريمتى، ليس لأن ضميرى قد استيقظ. فلم يكن ضميرى نائما طوال الوقت الذى كنت أسرق فيه البنك، وليس لأن ضميرى كان يعذبنى بقسوة، فلم أجرب هذا الاحساس من قبل. لقد اعترفت ببساطة لأننى كنت قد تعبت من السرقة، وبدأت أحس برغبة قوية فى العقاب. وكل ما سرقته يا سيدى المحقق قد طار فى الهواء. لن تجدوا فى بيتى فلساً واحداً. ولن تجدوا عقاراً ثابتاً أو منقولا باسمى أو بأسم زوجتى.

أين ذهبت كل هذه الأموال؟

– صرفتها كلها فى العلاج يا سيدى، علاج زوجتى. فبعد شهر العسل – الذى كان عسلاً بحق – أصيبت زوجتى بمرض يسمونه الاكتئاب. وهو مرض فظيع يا سيدى، بل هو أفظع الأمراض التى تصيب الزوجات، اصطحبتها لكل أطباء العلاج النفسى، انفقت عليها كل ما كنت أملكه من مدخرات، ولكنها لم تتحسن بل ازدادت حالتها سوءاً، وبالرغم من أن اكتئابها كان من النوع الهادى، غير الضار، وغير الضار هنا بمعنى أنها لن تذبحنى وأنا نائم مثلاً، هذا ما أكده لى الأطباء، وأكدوا لى أيضاً أننى سأحيا فى تعاسة دائمة فقط. كانت فاترة غير متحمسة لشئ، تتحرك بهدوء وخفة كالشبح، تتحدث همساً. ليس ذلك الهمس المحبب بل ذلك النوع من الصوت المبحوح، الذى إذا سمعته كثيراً فقد يدفع بك إلى الجنون، فجأة بطريق الصدفة بعد عذاب طويل اكتشفت علاجاً مدهشاً. أهديتها خاتماً صغيراً من الماس كنت قد ورثته عن أمى، نظرت للخاتم بإعجاب ولمعت عيناها ببريق حى آخاذ، وشيئاً فشيئاً دبت فيها لروح، اختفى الاكتئاب وحلت محله حالة من البهجة الجميلة، لقد تحولت لشخصية أخرى، نشطة، تضحك، تغنى تتفنن فى طهو الأطعمة التى أحبها، تحرص على مظهرها طوال اليوم، باختصار يا سيدى عشت معها أسبوعاً فوق السحاب، أسبوعا فى الجنة، أما الأسبوع الذى يليه فقد فوجئت بنفسى وقد عدت لنيران الجحيم، لقد عادت إليها حالة الاكتئاب اللعينة فجأة وبلا أية مقدمات، لقد انتهى

مفعول الخاتم وعلى أن أجدد الدواء، وبآخر ما معي وكل ما استطعت الحصول عليه من أصدقائى، اشتريت لها جهاز فيديو وعدداً من الأفلام فاختفى الاكتئاب على الفور وعدنا للحياة فوق السحاب، استمرت الحياة فى الجنة هذه المرة أسبوعين عدت بعدها للحياة فى الجحيم، بالتحديد فى الدرك الأسفل منه.

كانت تطلب من نوادى الفيديو أفلام الرعب فقط، وأفلام المآسى والكوارث المفجعة، كانت تمر على لحظات أشعر فيها أن شقتى أصبحت مأهولة بأبطال أفلام الرعب. استولى على شعور غامض بأنه فى أى لحظة سأفاجأ بدراكيولا فى الحمام، أو مصاص الدماء يتناول عشاءه فى المطبخ أو فرنكشتين شخصياً يجلس إلى مكتبى.

وبالرغم من كل ذلك كنت قادراً على التحمل، أما هى فقد تطور اكتئابها وبدأ يتحول للنوع الخطر. عند ذلك نصحنا الأطباء بضرورة تغيير الجو والسفر بعيداً.

اقترحت هى باريس عاصمة النور نمضى فيها عدة أيام ثم نمضى الصيف على شاطئ الريفيرا، فشلت فى اقتراض مصاريف الرحلة من أصدقائى، كما فشلت فى بيع قطعة الأرض التى أملكها، فسوق الأراضى فى ذلك الوقت كان قد أصابه الكساد .. لا .. لم أتحول للص فى هذه اللحظة، لقد قررت أن أقوم بعملية تغيير بسيطة فى بيان العملاء .. تلك التى تسمونها تزويراً .. أتمكن بها من الحصول على ما

يكفى الرحلة وعندما أعود .. أبيع قطعة الأرض بعد أن يرتفع سعرها وعند ذلك أسدد المبالغ التى أخذتها من البنك أو – كما تقولون – سرقتها.

وفى باريس، يا سيدى المحقق، اتضح أنها ليست معجبة بها بوصفها عاصمة للنور والثقافة والفن، ولكن بوصفها عاصمة للملابس والأزياء أما شاطئ الريفيرا يا سيدى، فلم أره ولم أتمتع بأمواجه. لم نخرج من الفندق. ولكنها بشكل عام كانت رحلة جميلة.

عندما عدنا وجدت مشتريا لقطعة الأرض بمبلغ كبير يغطى المبلغ الذى .. عفواً سرقته، ولكنى لم أعده للبنك فقد كنت فى حاجة لشراء سيارة جديدة بدلا من سيارتنا القديمة التى بعتها وسددت بها بعض الديون الصغيرة .. السيارة الجديدة يا سيدى؟ تهشمت فى حادث نتج عن سرحانى أثناء القيادة. عدت للسرقة بعد ذلك مرات ومرات، فقد كان الاكتئاب اللعين يلتهم كثيراً من الفساتين والمعاطف والهدايا والرحلات.

أنا أعرف يا سيدى أنها رفعت دعوى فى المحكمة تطلب الطلاق، وعندها حق يا سيدى، بأى وجه ستقابل أهلها وصديقاتها وهى زوجة لمختلس .. لص..

شاب فى الستين

أنتمى لأسرة معجزة، فجدى أنجب أبى بعد أن تعدى المائة من عمره، ومات فى سن المائة والعشرين حزناً على وفاة زوجته الرابعة التى كانت جميلة وتصغره بستين عاماً. وأبى مات بعد أن تجاوز الخامسة والتسعين من عمره بسبب حادث سيارة كان يقودها بنفسه وسط أوروبا فى رحلة طويلة من السويد إلى أسبانيا. ولذلك لا تندهشوا عندما أقول لكم أننى تخطيت الستين بينما مظهرى لا يوحى بأننى قد تجاوزت الخامسة والثلاثين. فجسمى قوى. وأنا قادر على سحق ثلاثة من شباب هذه الأيام بضربة واحدة من قبضة يدى. وأجرى فى الصباح عشرة كيلومترات قبل الذهاب إلى مكتبى لكى أعمل عشر ساعات فى عمل ذهنى شاق.

كان لابد من هذه المقدمة لكى تصدقوا أن فارق السن بينى وبين ليلى ليس هاما، ولن يكون لافتا لنظر الآخرين، وهى على أى حال

ليست صغيرة فقد تعدت العشرين بقليل، ولقد تلقت ليلى تعليمها فى أمريكا، وفازت هناك بعدة بطولات فى سباحة المسافات الطويلة وهى فتاة تتفجر بالصحة والعافية. وأنا أحب هذا النوع القادر على إعطائى أطفالا أقوياء أصحاء قادرين على مواجهة متاعب الحياة، سأتزوجها، لكى تعلم زوجتى التى تركتنى منذ شهرين وذهبت لبيت أهلها غاضبة، أننى لن أجلس فى انتظار عودتها تعساً وحزيناً، واضعاً خدى على كفى، بل سأتزوج أجمل وأصغر وأفضل منها.

ليلى لم تعترف لى بعد بأنها تحبنى. ولكنها تنظر لى دائماً بإعزاز خاص. وأنا أعرف – بخبرتى – تلك النظرة جيداً، أنها تلك النظرة الودود المليئة بالإعجاب التى تعبر عما تحسه الأنثى من حب تجاه الرجل. الرجل الحقيقى، الذى هو أنا، بكل مواصفاتى.

وبما أن كبريائى كرجل ذى شخصية قوية تمنعنى من مفاتحتها، لذلك يجب أن أظل هادئاً فى انتظار أن تفاتحنى هى، وهذا ما حدث اليوم، لقد اتصلت بى فى الجريدة التى أعمل بها وقالت إنها تريد أن تتحدث معى فى أمر هام فأعطيتها موعداً بعد ثلاثة أيام متعللا بكثرة مالدى من أعمال.

سأقول لها: اسمعى يا ليلى. إننى أحترمك فقط وأشعر ناحيتك بارتياح وبود خاص. ولكنه لا يرقى لمرتبة الحب، ولكنى بالقطع سوف أحبك مع الأيام، أننى رجل عملى، متى أذهب لأهلك لخطبتك؟

مرت الأيام الثلاثة بطيئة، واستعددت للحظة الموعودة استعداداً خاصاً، أمهر المدلكين فى البلدة أجرى لى تدليكاً عنيفاً أجرى الدم حارا فى كل عروقى وعضلاتى، أخذت حماماً ساخناً ثم حماماً بارداً، وكانت النتيجة أننى عندما نظرت فى المرآة قبل ذهابى للموعد وجدتنى تقريباً – إذا حذفنا شعرى الأبيض – فى سن العشرين.

جاءت فى الموعد تماماً. كانت ترتدى ثياباً بسيطة أنيقة. لم تكن تضع مكياجاً أو مساحيق من أى نوع على وجهها. يبدو أنها – الحق معها – اكتفت بالسحر الطبيعى المنبعث منها والبهاء الذى يشع حولها، ياإلهى، أشكرك لأنك عوضتنى خيراً عن صبرى الطويل، من الجميل أن يكون المرء زوجة مثلها، وبدأت تتحدث، هل استمعت إلى آلاف العصافير وهى تغرد دفعة واحدة؟ إن ذلك قد يحدث للإنسان مرة واحدة فى حياته. من المؤكد إنها هذه المرة.. قالت: إننى أشكرك بحرارة لأنك أعطيتنى من وقتك هذه الدقائق، فأنا أعلم كم أنت مشغول. ولكنى بحثت فيمن حولى عمن أثق برجاحة عقله فلم أجد إلا أنت، فأنت بالرغم من تخطيك سن الستين إلا أنك مازلت تفكر بقلب شاب وعقل شاب. لقد اخترتك أنت بالذات، يا عمى، من بين كل معارفنا وأقاربنا لكى أحدثك عن مشكلتى. أننى أحب شاباً فى كلية الهندسة فى السنة النهائية، وهو يصغرنى بعامين، ولقد تقدم لخطبتى بالفعل.. ووافقت أمى.. ولكن أبى من رأيه..

هل جـربت الدش البـارد المثلج فى شـهـر يناير؟ هل حـدث لك أن فوجئت بنفسك وسط عاصفة ترابية عفراء نكراء؟

تركتها تكمل قصتها لست أذكر ماذا قلت لها وبماذا أشرت عليها، كل ما أذكره أننى أوقفت لها تاكسياً وودعتها فى أدب، سرت بخطوات ثقيلة بطيئة هرمة إلى سيارتى، أنها المرة الأولى فى حياتى التى أشعر فيها أننى أصبحت رجلا عجوزاً.

قادتنى السيـارة إلى منزل أهل زوجتى، فتحت لى زوجتى البـاب، ودعتنى للدخـول فى برود. تكلم كل منا كـثيراً فى تلك الليلة، تـخلص كلانا من طاقة الغضب المحتبسة بداخله، عدنا إلى المنزل. بالطبع هى ليست صغيرة ولا جميلة مثل ليلى، ولكنها على الأقل لن تقول لى: يا عمى.

مشعلة الحرائق

للمرة الألف سألتني: لماذا أنت حزين هكذا..؟

انفجرت ساخطاً: قلت لك أنني لست حزيناً، شرحت لك ذلك ألف مرة، تمر بي لحظات شرود وتأمل لهذا العالم وأحواله ومشاكله، عند ذلك تكتسب ملامحي ذلك الشكل الذي تعتقدينه حزناً.. من فضلك كفي عن ترديد هذا السؤال.

انسحبت إلى غرفتها وهي متأكدة أنني أكذب وأن هناك ما يحزنني على نحو خاص وأن ما يحزنني ليس له صلة بالعالم ومشاكله، وأن هناك مشكلة تتعلق بكل منا أرفض الإفصاح عنها. وكانت محقة في شعورها، فلقد كنت أكذب فعلا، ولكن لماذا لا أقص عليكم الحكاية من البداية؟

قابلتها صدفة في محل من محلات لندن الكبيرة، تلك المحلات التي نتقابل فيها أكثر مما نتقابل في أوطاننا. شاهدت وجهها اللحظة

واحدة، لحظة واحدة كانت كافية لإشعال الحريق فى قلبى وإثارة العواطف فى عقلى، وسمعت زميلتها تناديها بسعاد.. ثم اختفت فى زحام المحل.

جريت خارجا انتظرها عند المدخل حتى خرجت هى وزميلتها ولكنهما استقلتا تاكسياً كان ماراً بالصدفة.

اختفت من أمامى ولكنها لم تختف من عقلى، ظلت صورتها محفورة بالإضافة لقرار مصيرى هام، بل أكثر القرارات مصيرية فى حياة الرجل، سوف أتزوج هذه المخلوقة، ولكن كيف؟ من أى بلد هى؟ ..بل ..من هى؟ ..أنا متأكد أنها آنسة، فهذه النظرة البريئة الطاهرة المتعطشة فى نقاء للحياة، أنا أعرفها جيداً.. ولكن كيف الوصول إليها.. آه.. كيف الوصول إليك ياسعادى.. وسعادتى.. يا مشعلة الحرائق فى قلبى ومثيرة العواطف فى عقلى.

إننى أسمع الكثير عن الصدف السيئة والصدف السعيدة. ولكنى لم أقابل فى حياتى ما يؤكد ما أسمعه إلى أن رأيتها مرة واحدة فجأة.. إنها أجمل (فجأة) فى حياتى.. كانت داخلة إلى بناية ضخمة فى عاصمة بلادى.. أتاح لى ازدحام المرور وتوقفه وأنا أقود سيارتى أن أتأكد أنها هى.. نعم، إنها هى، هى سعاد. والدليل هو ذلك الحريق الذى اشتعل مرة أخرى فى قلبى وتلك العواصف التى تكاد تقتلع عقلى. بالإضافة لصوت ضربات قلبى التى ارتفعت حتى غطت على صوت سيارتى الجيب.

انطلقت بالسيارة كالمجنون كاسراً الإشارات متخطياً السيارات بكل الطرق غير القانونية بين سخط سائقيها وشتائمهم حتى وصلت إلى منزل أختى الكبيرة. وطلبت منها أن ترتدى ملابسها وتنزل معى فوراً، فى السيارة أدليت لها بأوصاف سعاد بدقة وطلبت منها أن تعرف عنها كل المعلومات الممكنة من البواب.. وهذا ما حدث بالفعل.

هى الابنة الوحيدة لأسرة ثرية وطيبة، والدها يشغل وظيفة مرموقة فى وزارة الداخلية وفى اليوم التالى مباشرة ذهبت إليهم أسرتى، والدى ووالدتى وأختى. طلب الأب منهم إعطاءه فرصة لمدة أسبوع ليدرس الموضوع ويتحرى عنى وعن أسرتى، على أن يتصلوا هم بنا.. وبعد خمسة أيام مرت كأنها دهر تلقينا منهم دعوة للعشاء، فذهبنا جميعاً، وأنا معهم.. لقد حان الوقت لمشاهدة العريس، الذى هو أنا.

على مائدة العشاء كاد قلبى أن يتوقف، فى الغالب توقف لمدة ثوان، لم تكن العروس سعاد التى أقصدها، كانت سعاد أخرى، اتضح فيما بعد أن الفتاة التى رأيتها فى لندن اسمها زينب ويدللونها بسعاد.. لماذا؟ ..لا أعرف، يبدو أن ذلك قد حدث لتأكيد ذلك التعبير الشهير (سخرية الأقدار).. حقا كانت سعاد العروس جميلة ورقيقة ومهذبة ولكنها لم تكن تلك الأخرى مشعلة الحرائق ومثيرة العواصف.

إنها فى أفضل الأحوال والظروف لا تشعل فى القلب سوى شمعة صغيرة، ولا تثير فى العقل إلا نسيماً رقيقاً يدفع الإنسان إلى النعاس، ما العمل؟ كيف أفلت من هذه الورطة؟.. كان من المستحيل أن أنسحب

بعد الخطوات التى تمت.. من المستحيل أن أقول لا.. ليست هذه من أقصد وإلا لتحول الموضوع إلى عبث أطفال ودعابة قاسية، لن يغفرها لى الأب.. من المؤكد أنه سيدفعنى ثمنها غالياً.. آه.. لو كان موظفاً فى وزارة أخرى غير الداخلية.

استسلمت لقدرى وتزوجتها، وأشهد أنها حاولت المستحيل معى، ولكنها لم تفلح فى أن تجعلنى سعيداً، ليس لعيب فيها ولكن فى، فقد كانت صورة الأخرى تطاردنى.

تزوجت زينب الشهيرة بسعاد بعد شهر واحد من زواجى من سعاد وسافرت إلى بلد آخر مع زوجها وانقطعت أخبارها.

سافرت، وتركت لى الحزن والألم إلى الأبد.

بعد عامين قابلت صديقاً لى كنت أطلعته على سرى. قال لي: يا سلام على القدر هل تعرف ماذا حدث للفتاة التى أحببتها من أول نظرة.. تزوجت ثلاثة مرات وطلقت في المرات الثلاث، زوجها الأول مازال يعانى من حالة اكتئاب حادة، وزوجها الثاني أصيب بانهيار عصبى وأهله يعالجونه الآن فى أمريكا.. أما الثالث فقد أصابته لوثة عقلية، وأخذ يهيم على وجهه فى الشوارع ثم اختفت أخباره، ويقال إنه شوهد يتسول في شوارع كوبنهاجن..

ياإلهى، كم أحب زوجتى.

دخلت أقرب محل واشتريت لها هدية غالية وأسرعت إلى البيت.
فى تلك الليلة اعترفت لها بتفاصيل كل ماحدث، واعتذرت لها بكل ما أملك من حرارة.. وطلبت منها ألا تسألنى مطلقاً فى يوم من الأيام..
لماذا أنت سعيد هكذا؟

صيغة الاستفهام

في عامنا الدراسي الأول في كلية العلوم السياسية والاقتصاد، لفتت انتباهي إليها بخطواتها الجادة وصرامة نظراتها وحرصها على حضور كل المحاضرات منذ بداية العام الدراسي حتى نهايته.

وفي عامنا الدراسي الثاني شدَّت انتباهي إليها بقوة لقدرتها على التحصيل والاستيعاب وإلمامها الواسع بكل المراجع التي يطلب منا العودة إليها. وفي العام الدراسي الثالث كنت مبهوراً بشخصيتها وإجادتها الكاملة للغتين، الإنجليزية والفرنسية، أما في الفصل الرابع والنهائي فقد جننت بها.

هذه المخلوقة لا تأكل مثلنا اللحم والأرز والسمك والدجاج والبيض، في الغالب هي تتغذى على التاريخ والجغرافيا والسياسة وعوامل ارتقاع الحضارات وانهيارها. كانت دقيقة للغاية، بل كانت أحياناً تسبب حرجاً لبعض الأساتذة بأسئلتها الذكية المتلاحقة.

عندما كان الأستاذ يتكلم عن النظام السياسى فى روما القديمة مثلا، كانت تسأله: عن أى مرحلة من مراحل الامبراطورية الرومانية تتحدث سيادتك؟.. هل مرحلة ازدهارها؟.. أم لعلك تقصد فترة معينة من فترات انهيارها؟.. وعندما تتكلم عن روما القديمة، هل تقصد مجلس الشيوخ، أم الحرس الامبراطورى أم الشعب نفسه؟.. وحتى لو كنت تتحدث سيادتك عن الشعب. فلا تنس أنه كان مكوناً من الأحرار والعبيد، بالطبع العبيد لم يكن لهم دور ضاغط فى رسم السياسة الداخلية أو الخارجية، ومع ذلك لعبوا أحياناً دوراً مؤثراً إلى حد ما فى ثورة العبيد التى تعرف باسم ثورة «سبارتكوس». ولكن هذه كما تعرف سيادتك تم قمعها بقسوة لا مثيل لها.. فعن أى شىء فى روما القديمة تتحدث يا سيدى؟

يا إلهى.. كيف للإنسان أن يحمل كل هذا العلم بين جوانبه؟

فى الامتحان النهائى، كان ترتيبها الأولى على الدفعة كما هو متوقع، وكأن ترتيبى هو الثانى – ومنذ تلك اللحظة ولسنوات طويلة قادمة، ستظل هى «الأولى» وسأظل أنا الثانى. ومع ذلك، وبالرغم من كل هذا التكامل الخشن فى الشخصية، وكل هذا التوازن النفسى الذى يصل إلى حد الصرامة العقلية، وكل هذا العلم الغزير فقد كان لها جانبها الأنثوى العذب الجميل الذى لم يتنبه له سواى.

بعد ظهور النتيجة، لحقت بها وهى خارجة من باب الكلية، استجمعت شجاعتى وقلت لها: مبروك. أجابت فى حياء وخجل: بارك الله فيك.

بكلمات مضطربة قلت لها: آنسة.. هل تسمحين لى أن أتحدث معك قليلا.. هنا فى بوفيه الكلية؟

ترددت قليلا ثم وافقت. كانت المرة الأولى التى نجلس فيها فى بوفيه الكلية، لملمت أطراف شجاعتى وقلت لها: آنسة.. أنا من أسرة طيبة.. وأبحث عن.. أنت تعرفين بالطبع أن الإنسان فى سن معينة يجب أن يبحث عن.. يعنى.. أقصد أن أقول.

أطرقت بنظراتها إلى الأرض فى خجل وقد ازداد احمرار وجهها، يا إلهى.. هل هناك أنثى على الأرض بهذا الجمال؟ قالت فى رقة هامسة: سوف أكتب لك عنوان المكان الذى يعمل به والدى.. من الأفضل أن تتحدث معه فى هذا الشأن، أنه جهة الاختصاص الوحيدة.. أليس كذلك؟

أخرجت قلما جميلا وكتبت فى ورقة صغيرة عنوان والدها ورقم تليفونه ورقم تليفون المنزل ثم استأذنت فى الانصراف مسرعة، قبل أن تغيب عن ناظرى سألتها وقلبى ينبض بسرعة وعنف: أفهم من ذلك.. أنك؟

قالت وهى تبتسم فى حياء: نعم.. وأفهم أيضاً أن ما تفكر فيه يسعدنى.

يا إلهى.. ما أفكر فيه يسعدها.. يا للدنيا التى تعطى وجهها الجميل لبعض البشر أحياناً، لقد قرأت كثراً فى القصص العربية القديمة، عن الغزال الشارد.. ولم أكن أستوعب هذا التعبير جيداً.. أما الآن فقد فهمته، كانت غزالا شرد بعيداً عنى بعد أن ترك لى دفعة من السعادة قلما تتاح لبشر.

فى فترة الخطبة بدأت أكتشف فى أعماقها أغواراً جديدة، لآلىء مختبئة، كانت رقيقة بقدر ما فيها من صرامة، ساذجة بقدر ما تمتلىء به من علم، أم وأخت وصديقة وحبيبة.

أعترف لكم أننى فى أحيان كثيرة كنت استكثرها على، كنت أشعر أحياناً بنوع من الأحاسيس الدونية التى تنتاب فى الغالب الصعاليك عندما يجدون أنفسهم فجأة نزلاء فى قصر فخم يطل على المحيط وتحيط به الحدائق الغناء.

شىء واحد كان يضايقنى منها، لم يكن يضايقنى بالمعنى الردىء للكلمة، ولكنه كان يشعرنى باستياء خفيف هو.. صيغة الاستفهام.

كانت تستخدم فى تسعين فى المائة من حديثها معى صيغة الاستفهام وكأن اللغة تخلو من صيغة الإثبات هل أضع لك لبناً على الشاى؟.. أم أنك تشربه بدون لبن؟.. إلى متى ستشرب الشاى بدون لبن؟ لماذا لم تتصل بالأمس..؟ ألن تذهب للترزى؟.. لماذا لم تذهب للترزى؟ هل أنت فى حاجة دائماً لمن يذكرك بمراعاة شئونك الخاصة؟

هل ستظل هكذا بلحيتك الطويلة؟.. ألن تعود نفسك على حلاقتها فى موعد محدد؟.. لماذا لم تعود نفسك على حلاقتها فى موعد محدد؟.. لست أدرى لماذا لم تكتسب عادة حلاقة اللحية يومياً؟.. ألن تكف عن دعوتى لمثل هذه المسرحيات؟ ألم تكتشف بعد أنها مسرحيات سخيفة؟ هل اكتشفت أنها مسرحيات سخيفة أم لا..؟ بعد كم من المرات ستكتشف أنها مسرحيات تخلو من المتعة والفكر الجاد؟.. لست أدرى متى ستنضج أفكارك؟

لم تكن صيغة الاستفهام بالتحديد هى التى تضايقنى، وإنما الجانب «الاستنكارى» فيها. ولكنى كنت أعلم من خلال قراءاتى الواسعة فى علم النفس أن فترة الخطبة هى فترة توافق بين شخصين جاءا من عالمين مختلفين. وأنه بالحب والإصرار والفهم سيعرف كل منا الآخر جيداً، ويكتشف ما يضايقه فيكف عن فعله، حتى يتحولا بفعل الهدف المشترك إلى شخص واحد، كنت أحبها، وكانت تحبنى بالطبع، الخلاف بيننا كان فى الطريقة التى يظهر بها كل منا حبه للآخر، وبما أن كل شىء على الأرض لا يثبت على حال وأن كل شىء يتغير، لذلك فقد تغيرت صيغة الاستفهام الاستنكارى إلى صيغة الاستفهام التأنيبى الذى مالبث بدوره أن استقر فى شكله النهائى على صيغة الاستفهام الاستنكارى، التأنيبى، الهجومى، حدث هذا بعد أن تزوجنا.

يا سلام.. لو طبخت لنا أرزاً اليوم؟

-أرزاً؟.. هل تريد أن تأكل أرزاً.. ألا تكفيك هذه الزيادة المفزعة فى وزنك؟ هل تريد أن تتحول لفيل؟

– ملعقة واحدة، أو ملعقتين ..وسأمتنع عن العشاء.

– أنت لا تريد زوجة.. أنت فى حاجة لطاهية.. لماذا لم تصارحنى بذلك منذ البداية؟ كلمنى بصراحة.. ما هى فكرتك عن الزواج؟ هل تتصور الزوجة جارية، تطبخ وتغسل وتهتم بشئون الأولاد؟ لقد انتهى عصر الجوارى. ألا تعرف أن عصر الجوارى قد انتهى منذ زمن بعيد؟.. كان يجب أن توجد في العصر العباسى، كنت ستجد جارية بسهولة.. جارية خمس نجوم.. تجيد الطبخ والغسيل والعزف على العود والغناء والرقص.. انتبه.. لماذا لا تنتبه إلى أن الزمن قد تغير، لماذا لم تكتشف حتى الآن الفروق الهامة بين الزوجات وبين الجوارى؟

– حسناً.. أنا آسف.. لست أريد أرزا.

– ماذا تريد إذن؟.. مكرونة؟.. وكيف تريدها؟ أسباكتى أم فى الفرن؟ كن شجاعاً واعترف أنك تحب المكرونة.. لماذا لا تتمتع بالشجاعة العقلية الكافية لتعترف أنك تحب المكرونة؟

– نعم أحبها..

– ولماذا الكذب والجبن إذن؟.. لماذا لا تعترف منذ البداية أنك تريد أن تأكل مكرونة؟ أنت تحب المكرونة، هل تعتقد أن هذه الحقيقة خافية على أحد؟.. يالدلع الرجال الذين تخلوا عن مسئوليتهم تجاه البشر. هل

تعلم كم شخصاً مات فى إفريقيا جوعاً بسبب الجفاف؟.. لماذا لا تحمد الله على ما تتمتع به من نعم؟ ومع ذلك ولكيلا تتهمنى بأننى أضايقك.. سوف أطبخ لك أرزاً.. انبسطت؟

- نعم.. وأشكرك.

- هذا القميص ليس نظيفاً.. أعطنى من فضلك قميصاً نظيفاً.

- آه.. قلت لك أنك لا تريد زوجة.. أنت فى حاجة إلى غسالة.. لماذا لا تعترف أنك فى حاجة لغسالة.. هـ..؟

انفجرت صارخاً بصوت اهتزت له جدران الشقة والشقق المجاورة: أرجوك يا بنت الناس.. حرام عليك.

عدت من العمل فلم أجدها فى المنزل كانت غاضبة فى منزل أسرتها، فى اليوم التالى ذهبت أعتذر لها واسترضيها ثم أعود بها. تكررت هذه العملية حوالى خمس وعشرين مرة فى ثلاثة أعوام، وفى كل مرة كنت أعتذر، لأننى المخطىء، فقد كنت أصرخ، ومن الخطأ أن يصرخ الرجل فى وجه زوجته. أليس كذلك؟

وذات مرة عقب سيل من الأسئلة الاستنكارية التأنيبية الهجومية الاتهامية، صرخت وقذفت ببعض الأشياء إلى الأرض فتحطمت، وخرجت لعملى.

عندما عدت لم أجدها، كنت أتوقع ذلك بالطبع، أما الأمر الذى لم أكن أتوقعه فهو أن أجد شقتى خاوية على عروشها.. إلا من ملابسى

التى كانت ملقاة على الأرض، جدران وأرض وسقف فقط. ماذا أفعل؟.. هل سأذهب إليها لأسترضيها وأعتذر لها مثل كل مرة؟ وفى المرة القادمة؟ وفى المرة بعد القادمة؟.. هل ستكون هذه هى حياتى إلى الأبد؟ وإلى متى سأتحمل؟

بدافع من التعاسة واليأس خرجت من الشقة إلى قريتنا.. رحبت بى أمى.. قلت لها: زوجينى يا أمى. اختارى أنت لى.

كانت أمى تقول دائماً: إن الرجل عندما يختار زوجته، عليه أن يبحث عن أسرة طيبة هادئة.. هذا هو الشرط الأول والأهم فى عملية الاختيار، فالفتاة التى تربت على الطيبة والهدوء واحترام الأب، سوف تعامل زوجها من نفس المنظور التى كانت تعامل به والدها.

بعد عشرة أيام بالضبط، انتهيت من تأثيث شقتى واستقبلت زوجتى الجديدة.

أنا الآن مستمتع بحياتى. لن أذكر لكم التفاصيل فأنا أخشى الحسد، أرسلت ورقة الطلاق للأخرى.. أتخيلها الآن وهى تطلق سهامها الاستفهامية الاستنكارية الهجومية، التأنيبية. ماذا يظن نفسه؟.. هل يعتقد أننى أحفل به أو بالطلاق منه؟.. هل يظن أننى سأتحمله للأبد؟.. هل يعتقد أننى مثل الأخريات؟.. بالطبع سوف يكتشف الفرق بينى وبين زوجته الجديدة الجاهلة.. أليس كذلك؟ أم تعتقدون أنه ليس كذلك؟.. هل يعتقد أننى سأهتز لهذه الفعلة؟ .. هـ ..؟ أم أنه..؟ ..؟ ..؟ ..؟ الخ ..الخ ..الخ ..

كمونيات

أنجبت ثلاث بنات من الزوجة الأولى. وبنتين من الزوجة الثانية. وبنتاً واحدة من الزوجة الثالثة، لم أيأس، ولم أسمح للمرارة بالاستيلاء على، فأنا عادة أعرف هدفي تماماً وأتحرك صوبه فى هدوء وبلا توتر، وعلى استعداد لأن أخوض ألف معركة فاشلة لكى أنتصر فى المعركة الواحدة بعد الألف.

ومعركتى الوحيدة فى هذا العالم - بصراحة - هى أن يكون لى ولد يحمل اسمى واسم أسرتى العريق: الكمونى.

فأنا آخر رجل يحمل اسم الأسرة، وبموتى يختفى هذا الاسم من فوق الكرة الأرضية، وهذا أمر يصيبنى مجرد التفكير فيه بالفزع، لذلك تزوجت للمرة الرابعة، حمداً لله، لقد رزقت بالولد أخيراً، أخيراً شاهدت بعينى رأسى الكمونى الصغير - ابنى - يأتى إلى الدنيا بعد طول انتظار حاملا معه الأمل فى أن يبقى اسمى ذائعاً ومنتشراً بين البشر إلى الأبد.

بعد أن أنجبت أربع فتيات، ولم يضايقنى ذلك. ولم اهتم للأمر. فقد كان يكفينى فى هذه الدنيا أن أنظر لوجه ولدى - الكمونى الصغير - لكى أشعر بالفخر والسعادة والكبرياء.

نشأ ابنى - الكمونى المنتظر - محاطاً بعطف وحسد أخواته البنات وحقد ثلاث زوجات وحب أمه وأبيه. وفرت له كل أسباب الراحة والسعادة، فلست أريد له أن ينشأ عادياً يتوه أو يذوب اسمه بين ملايين البشر، أحطته بكل أنواع المربيات والخدم، كان له سائقه الخاص منذ طفولته، وفى مراحل التعليم الإبتدائية والإعدادية والثانوية كان طاقم المدرسين بأكمله ينتقل إلى منزلى ابتداء من لحظة الغروب ليقوموا بإعطائه دروساً خصوصية فى جناحه الخاص، وفى الأجازات الصيفية كنت أرسله إلى أجمل شواطىء الدنيا، ولكن اسمحوا لى أن أتوقف قليلا لكى أوضح حقيقة هامة، لقد حرصت دائماً وبالرغم من كل شىء على ألا يكون فتى مدللا، كنت أريد له أن يؤمن بأنه أقوى من الآخرين، بمعنى أنه قادر على أن يفعل مالا يستطيعه الآخرون وبذلك يأتى من جلائل الأعمال والأفعال بما يجعل اسمه محفوراً وإلى الأبد فى أذهان الناس، لعلكم تريدون أن تسألوا، ماذا حدث لبناتى؟ لا شىء تخرجن فى الجامعة وحصلت بعضهن على الماجستير والبعض الآخر على الدكتوراه وكلهن عملن فى وظائف مرموقة فى الجامعات والحكومة، وتزوجن زيجات ناجحة، أما ابنى - الكمونى - فقد شاء الله أن يكلل مجهودى وكفاحى الطويل بالنجاح، لا تستطيع أن تسير فى شوارع المدينة دون

أن يصطدم بصرك باسمه وقد رسم بالأضواء والألوان، لقد أصبح ابنى – كما أردت – واحداً من أشهر العاملين فى حقل التشييد والبناء والاستيراد والتصدير والتجارة والصناعة، بل أصبح الكمونى رمزاً للقوة والنشاط والنفوذ والنجاح. ولكن شيئاً ما كان يضايقنى، إن هذا اللمعان تشاركه فيه عشرات الأسماء، بل مئات الأسماء، إننى أريد لاسم أسرتى لمعاناً آخر، لمعاناً متوهجاً، ساطعاً مبهراً قوياً، يثير اهتمام البشر بشكل أكثر حدة وسخونة، لم يعد يمتعنى أن أقرأ الاسم داخل براويز الاعلانات أو اللافتات، أريد أن أقرأه ويقرأه الآخرون فى الصفحات الأولى فى الصحف والمجلات وأن أسمع عنه فى نشرات الأخبار.

وأخيراً حدث ذلك، ولكن للأسف بطريقة لم تكن فى الحسبان، فذات صباح طلعت علينا جرائد الصباح بخبر أثار اهتمام الجميع، النيابة تأمر بالقبض على الكمونى، وتوالت الأخبار بكل أنواع المصائب مقترنة باسم أسرتى، الكمونى يقع فى قبضة العدالة، ضحايا الكمونى بالآلاف، الكمونى يحتال على البنك الفلانى والبنك العلانى، شيكات الكمونى بدون رصيد، الكمونى متهم بغش مواد البناء، الكمونى يستورد أغذية ملوثة بالإشعاع، زوجة الكمونى تطلب الطلاق، أخوات الكمونى البنات ينكرن أى صلة لهن به.

لم يعد لكل أجهزة الإعلام إلا الحديث عن الكمونى مقترناً بكل أنواع الجرائم، فيما عدا القتل العمد مع سبق الإصرار والترصيد.

يا إلهى، لقد كنت أريد لاسم أسرتى الانتشار والذيوع. ولكن ليس بهذه الطريقة.

(ملحوظة: مات كاتب هذا الاعتراف من فرط الحزن والخجل بعد كتابته بساعتين.. رحمه الله.. أما الكمونى الصغير فقد حكم عليه بمائتين وسبعين عاماً مع الأشغال الشاقة، وذلك فى قضية الشيكات وحدها، ومازالت المحاكم تنتظر بقية القضايا، كان الله فى عونه).

أنا مسافر

استيقظت من النوم مرهقاً عكر المزاج. فقد قضيت شطراً كبيراً من الليل ساهراً، أفكر في الطريقة التي أسوق بها إليها خبر سفرى إلى أمريكا، فلاهى ولا أية زوجة في الدنيا ترحب بأن يبتعد عنها زوجها لمدة ثلاثة شهور. أعني أنه لا زوجة على وجه الأرض ترحب بأن يتمتع زوجها بحريته لمدة ثلاثة شهور في مدينة مثل واشنطون. قد ترحب في حالة واحدة إذا كان سيقضى هذه المدة في سيبريا أو في زائير مثلا.

أخيراً جاءني السؤال الذي أنتظره.

– مالك؟

: لا شيء.

– لماذا لم تحلق لحيتك؟

: سوف أحلقها.

– هل ستحلقها لمجرد أنني سألتك لماذا لم تحلقها؟

هناك صنف من البشر لا يعرفون عن الحوار إلا أنه أسئلة فقط، أسئلة غاضبة، أسئلة استنكارية، أسئلة تحوى فى ثناياها اتهامات غامضة وغير محددة، أما الأسئلة المروعة حقا، فهى الأسئلة التى لا إجابة لها.

– إننى سأحلق لحيتى لسبب بسيط جداً، هو أننى تعودت على حلاقتها كل يوم.

– ومع ذلك كنت ستنسى أن تحلقها لولا أننى ذكرتك بأن تحلقها. ما الذى دفعك لنسيان هذه العادة هذا الصباح..؟ ماذا يشغل بالك..؟

هذه هى فرصتى للدخول فى موضوعى مباشرة، قلت بجد شديد: أنت حساسة فعلا.. ولديك خبرة عميقة بالنفس البشرية.. أنا قلق ومشغول فعلا.. إن هذه المهمة.

قاطعتنى فى توجس: أية مهمة ..؟

– مهمة عاجلة فى البنك الدولى فى واشنطون.. قسم مراجعة حسابات العالم الثالث.. لقد اختاروا محاسباً من كل بلد.. ولقد وقع الاختيار على لكى أسافر.. ستسغرق هذه المهمة ثلاثة شهور.

– ثلاثة شهور؟

قالتـهـا باسـتنكار وبصـوت حـاد وكـأنهـا تصـرخ، سكتت لحظة ثم واصلت: ولماذا اختاروك أنت بالذات.

برنة غضب خفيفة رددت عليها: لكفاءتى طبعاً.. ماذا تظنين إذن؟ هل أنا صديق للبنك الدولى حتى يختارنى لهذه المهمة؟

- قلبى يحـدثنى أنك أنت الذى سـعـيت من أجل هـذه المهـمـة.. بذمتك.. ألم تسع أنت للسفر..؟

- ولماذا أسعى أنـا للسفر فى مثل هذه المهمة الشاقة؟.. لقد أُخبرنى زملائى الذين عملوا هناك أن العمل يستمر حوالى عشرين ساعة فى اليوم.. إن مجموعتنا الأخيرة التى عملت هناك مات منها ثلاثة من الإرهاق.

- يا مسكين.. قلبى معك.

لجات أخيراً لسلاحها المفضل، السخرية، وعلى أن أتحمل طلقاتها المتهكمة لتمرير العاصفة، قلت: يا عزيزتى.. هل تعتقدين أننى ذاهب لأمريكا لكى ألهو وألعب؟

قالت: يا عزيزى.. أنا لا أعتقد ذلك.. أنت الذى تعتقد ذلك.. بمعنى أدق.. أنت تتـوهم ذلك.. أنت تتـوهم أنك مـازلت صـالحـاً للعب دور روميو أو دون جوان فى أمريكا.. ولكن ثق يا عزيزى أنك واهم تماماً.. إن كرشك قـد تعدت كل المواصفات المسموح بها عـالمياً.. وصلعتك وستك تجعلان فرصتك فى اللعب ضئيلة للغاية، بل منعدمة.. كما أن

ملامحك - واغفر لى صراحتى - لا تجذب أية أنثى فى دولة متحضرة مثل أمريكا.. تأكد يا عزيزى أنهم هناك لا يرضون بالهم مثلنا نحن نساء العالم الثالث.

تجاهلت سخريتها قاصداً تحويل الجو المتوتر إلى جو مرح، قلت لها فى استنكار شديد إننى لا أسمح لخيالك أن يطير بعيداً إلى مثل هذه الأماكن البعيدة.. ومع ذلك فإننى اعترف بأن إنسانة واحدة فى أمريكا هى وحدها القادرة على أن تدير رأسى وتفقدنى اتزانى، مارلين مونرو.. وهى لحسن حظك، ماتت منتحرة منذ زمن بعيد.. صدقينى يا عزيزتى إن الفراغ الذى سأشعر به بعيداً عنك، لم تخلق بعد المرأة التى تملؤه.

ابتسمت وملامح الشك مازالت تعلو وجهها وقالت: كانت جدتى تقول: «يامآمنة للرجال.. يامآمنه للمية فى الغربال».

- ماذا يعنى هذا المثل؟

- هو مثل موجه للمرأة.. إذا وضعت ثقتك فى رجل فكإنك تضعين الماء فى غربال.

- يا حبيبتى.. لكل قاعدة شواذ.. وأنا الشاذ الذى يثبت هذه القاعدة.. أنا الغربال الوحيد فى هذا العالم الذى يحتفظ بالماء، أنا الرجل الوحيد فى هذا العالم الذى لا يفكر إلا فى بيته وامرأته وأولاده.

- بالمناسبة، ماذا سأفعل فى مذاكرة الأولاد، هشام ضعيف فى الرياضيات والجغرافيا والعربى والتاريخ، وليد ضعيف فى الهندسة والجغرافيا واللغة الإنجليزية.. ومى متعثرة جداً فى كل المواد.

بدأت مرحلة فرض العقوبات الاقتصادية.

- أعلم يا حبيبتى مقدار العبء الذى ألقيه على كاهلك.. سوف أعطيك مبلغاً لمواجهة الدروس الخصوصية.

- المدرسون الجيدون نادرون هذه الأيام.. وإذا وجدوا، فأسعارهم نار..

- لا مفر من دفع ما يطلبون.. اتفضلى..

أعطيتها مبلغاً كبيراً يكفى لإعطاء دروس خصوصية لفصل دراسى كامل به مائة طفل، مبلغاً أزعم أن ابن خلدون نفسه لم ينفقه على كل مراحل تعليمه.

بعد أن وضعت المبلغ فى حقيبتها قالت بأسى: ومن يثق فى مدرسى هذه الأيام..؟ إنهم لا يشرحون بالحماس اللازم.. سوف أتولى بنفسى هذه المهمة.

قلت بلهفة: بنت حلال.. كنت على وشك أن اقترح عليك ذلك.

سكتت لحظة ثم قالت بلهجة جادة: هذا الأمر سوف يتطلب منى تفرغاً كاملا.. لذلك سأحصل على أجازة من عملى بدون مرتب لمدة ثلاثة شهور.

- سوف أضاعف مصروف البيت.

– لا أذكر ذلك لكى تضاعف مصروف البيت.. لأن هذا أمر منطقى.. أنا أقوله لك من باب العلم بالشىء.. ومع ذلك، أنا أوافق على أن تضاعف المصروف عن هذه الشهور الثلاثة فقط.. لأننى سأحضر شغالة أخرى.. الشغالة الموجودة عندنا، لا تستطيع أن تكون مسئولة وحدها بحيث أتفرغ أنا للأولاد تفرغاً كاملا.

– حسناً تفعلين.. لا مفر من ذلك.

تنهدت وقالت فى حيرة: ومسألة ذهاب الأولاد إلى المدرسة وعودتهم منها؟

– نحن مشتركون فى أتوبيس المدرسة، أليس كذلك؟

– الأتوبيس يتعطل كثيراً.

– هذا أيضاً فكرت فيه.. ولذلك طلبت من سائقى الخاص فى الوزارة أن يتصل بك كل يوم فى السادسة صباحاً.. لكى يوصلهم إذا تعطل الأتوبيس.

ضحكت ضحكة قصيرة وقالت: ثقتك كبيرة فى أجهزة التليفون.. ماذا سيحدث إذا تعطل التليفون؟

سكت؟ ماذا تريد منى؟ ماذا أفعل؟ هل أقوم باستئجار قمر صناعى خاص أو أقوم بتركيب محطة إرسال لاسلكية فى البيت..؟

فجأة. نظرت لى فى ضياع وقالت: ولكن.. هل حقاً ستسافر يا حبيبى ..؟

وانهارت باكية..

كل هذا الحب

فى مطار نيويورك، كان على أن أقضى أربع ساعات فى انتظار الطائرة التى ستقلنى إلى واشنطون. أخذت أتمشى متفرجاً على واجهات الحوانيت الصغيرة المنتشرة فى مبنى المطار بحثاً عن كتاب طريف أقتل به الوقت، وجدت كتاباً يحمل عنواناً جذاباً «رسائل حب»، تصفحت الكتاب بسرعة ففوجئت بأنه موجه أساساً لغير القادرين على كتابة كلمات الحب للآخرين، نماذج من خطابات الحب الملتهبة للخطيبة وللزوجة فى كل المناسبات. لدرجة أن المؤلف لم يهمل المطلقات، فهناك فصل كامل مخصص للأزواج الذين يريدون استعادة زوجاتهم.

اشتريت الكتاب على الفور وجلست أتصفحه حتى وصلت لباب «رسائل من الزوج المسافر». أعجبتنى رسالة فأخذت أتسلى بترجمتها، سوف أرسلها لها بمجرد وصولى إلى واشنطون، كم أود لو أرى وجهها

وهى تقرأ رسالتى الملتهبة، اعتقد أنها سوف تدهش كثيراً لقدرتى المفاجئة على كتابة رسالة حب بكل هذا الاتقان، لقد حل لى هذا الكتاب مشكلة كبرى، أنه كنز من الرسائل الرقيقة سيكفينى طوال مدة إقامتى فى واشنطون، مع مراعاة إضافة بضع جمل من عندى بالطبع.

وجاءتنى أولى رسائلها.

ما كل هذا الحب يا رجل؟.. ما هذه الكلمات الرقيقة التى لم أعهدها منك من قبل؟. هل كان يجب أن تبتعد آلاف الأميال لكى تتحول لشاعر، لماذا لم تكن تقول لى مثل هذا الكلام؟ عموماً، أنت أيضاً واحشنى جداً. كلنا بصحة جيدة فلا تشغل بالك بنا واعتن بنفسك وبصحتك ولا تقلق. كل شىء تمام، ماعدا بعض المسائل البسيطة التى تحدث كل يوم فى كل بيت، فبالأمس انفجرت ماسورة المياه الموصلة للحمام من المطبخ والتى تمر داخل الحائط الملاصق لحجرة النوم وأخذت المياه تتسرب منها أياماً دون أن نشعر بها، لأنها ممتدة داخل الحائط بمحاذاة السرير، وعندما تشبع الحائط أُخذت المياه تتسرب للسجاجيد عند ذلك تنبهت فأحضرت السباك الذى قال إنه لابد من إزالة هذا الجزء من الحائط وإخراج الماسورة ثم تركيب واحدة جديدة بشكل أفضل، على العموم لا تشغل بالك بهذا الموضوع ولا تقلق، سأتولى هذه العملية، إنها فرصة لإزالة الحائط كله وضم حجرة النوم للصالة فتصبح أكثر اتساعاً، سأقوم بتحويل غرفة السفرة لحجرة نوم، أما محتويات غرفة السفرة فسوف أبيعها (بعد إذنك).. لمواجهة نفقات هذه

العملية، اطمئن عندما تعود بإذن الله ستجد البيت أكثر جمالا، الشغالة الجديدة التى أحضرتها نشيطة جداً ونظيفة ومؤدبة ولكنها مصابة بداء السرحان، أول أمس تركت البوتاجاز مشتعلا وفوقه (الطبيخ) ثم ذهبت لتنام، لك أن تتصور حجم الكارثة التى كادت أن تحدث لولا حساسية أنفى الشديدة.

شممت رائحة الغاز وأنا فى شقة الجيران فقد كنت أزور السيدة اعتدال – على فكرة هى مريضة جداً وعلى وشك أن تموت – وعلى الفور عدت وكسرت باب الشقة بمساعدة الجيران حيث أننى نسيت المفاتيح داخل الشقة، أغلقت أنبوبة البوتاجاز على الفور وفتحت كل النوافذ. خسرنا فى هذه العملية ثلاثة كيلوجرامات من شرائح اللحم البتلو التى تحبها يا حبيبى، عموماً لا تخف لن يحدث هذا مرة أخرى، لقد طردت الشغالة، فلا تشغل بالك ولا تقلق علينا، أريدك أن تقبل على عملك بذهن صاف وقلب مبتهج مطمئناً إلى أننى أسيطر هنا على كل الأمور فيما عدا بعض الأشياء التى تتطلب وجودك بطبيعتها مثل خطاب مصلحة الضرائب الذى استلمته أخيراً، إنهم يطالبونك بمبلغ عشرة آلاف جنيه، فذهبت إليهم ومعى الأستاذ عبدالله زوج عمتى الذى يعمل محاسباً كبيراً، وقدمنا طعنا فى التقدير، على العموم اطمئن لا تشغل بالك ولا تقلقك هذه المسألة، لقد وعدونى أن يؤجلوا الحجز على رصيدك فى البنك وعلى أملاكك إلى أن تأتى، لذلك أنصحك بألا تتأخر يوماً واحداً عن التسعين يوماً المحددة للمهمة، إن حزن الأولاد

وحزنى لغيابك يفوق الوصف. لم يعد لشىء أى طعم، أنا والأولاد وزننا يتناقص باستمرار، الشحوب أصبح يعلو وجوهنا، كل ما نرجوه منك ألا تقلق علينا وأن تهتم بصحتك لأنك حساس جداً للبرد. ترى؟.. ماذا فعلت بك الثلوج فى أمريكا؟.. إن البرد عندنا أخف بكثير من عندكم ومع ذلك أصيبت ابنتك بنوبة برد حادة وارتفعت درجة حرارتها إلى حد مخيف، وأخذت تهلوس: يا بابا.. عد إلينا يا بابا.. أشعر بالبرد يا بابا.. حتى أن الطبيب بكى وقال: لا شىء فى هذه الدنيا يستحق أن يترك الأب أولاده لمدة خمس دقائق.. إننى فى دهشة من أمر هؤلاء الآباء الأوغاد الذين يتركون أولادهم. عند ذلك ثرت فى وجهه وأخبرته أنك لم تتركنا. أنت فقط فى مهمة. إننى لا أسمح لأحد مطلقاً يا حبيبى أن يمسك بكلمة واحدة فى غيابك.

زوجى الحبيب.

معذرة لثرثرتى، أطلت عليك. ولكننى أطلب منك شيئاً واحداً، أن تهتم بصحتك ولا تشغل بالك فنحن بخير.. قبلاتى.. و.. إلخ.. إلى غير ذلك.

انتهى الخطاب، وفى نهاية قراءتى للخطاب انتهت أجازتى، الآن فقط عرفت معنى تلك النصيحة الغالية التى كان يقولها العرب الأقدمون، عندما ترحل، أرحل وحدك، لا تأخذ الهم معك. كنت أعتقد أننى مسافر وحدى بعيداً عن أى هم وأى غم، إن العربى القديم الذى قدم هذه النصيحة للأجيال القديمة، لم يكن يعرف أنه سيأتى يوم يعبأ

فيه الهم والغم فى قطع من الورق يسمونها خطابات تصل إلى البشر أينما كانوا وحيثما حلوا، لا حل لهذه المشكلة إلا باختراع جهاز جديد يوضع فى مصلحة البريد، تدخل فيه الخطابات فيستبعد منها تلك التى تحوى الغم والهم وتعيدها لمرسلها الأصلى أو على الأقل، يفرزها ويطبع عليها بخط واضح عبارة «نحذرك من قراءة هذا الخطاب» أو عبارة «هم جدا بدلا من هام جداً».

وحيداً فى غرفتى، أشعر بحزن غامر يجتاحنى، وعلى الرغم من التدفئة المركزية التى أحالت المكان إلى فرن إلا أننى شعرت ببرودة تتسلل لقلبى، بين النوم واليقظة. أسير فى شارع مزدحم من شوارع واشنطون، السيارات تمرق مسرعة بجوارى تحت الرصيف، يد فى الزحام تمتد لتقذف بى تحت العجلات، استيقظت مفزوعاً أكتم صرخة، يا إلهى، هل سأموت فى هذا المكان؟.. لا داعى للقلق، أولادى سيقبضون مائة ألف دولار، مبلغ التأمين الذى يخصصه البنك الدولى لموتى العالم الثالث الذين يأتون للعمل به، جميل أن يثرى الأولاد بموت الآباء، أليس هناك أى شىء جميل فى هذه الرحلة؟ نعم هناك. باتريشيا الحسناء.. لماذا لا أدعوها لقدح من القهوة فى مكان هادىء، لعلها تنسينى بعض أحزانى. من يدرى، قد تنسينى كل أحزانى. فى الغد سأدعوها. ونمت.

هى والخايب حسن

البطلة دائماً فى الحواديت القديمة التى كانت تقصها على جدتى قبل أن أنام، اسمها ست الحسن والجمال. ولو كانت جدتى قد شاهدت سكرتيرة رئيس القسم الذى أعمل به فى البنك الدولى لغيرت اسم البطلة فى كل التراث الشعبى وأسمتها «باتريشيا» باتريشيا هى حسناء أمريكية، أمها إيطالية وأبوها ألمانى وجدتها لأمها دانمركية وجدتها لأبيها بولندية وجدتها السابعة أسبانية. هذا هو ما تناهى إلى سمعى وهى تحكى لصاحبتها بينما كنا نتناول وجبة غذاء خفيفة فى كافتريا البنك، كنت أجلس خلفهما تماماً، وكانت تضحك ضحكة جميلة لها رنين الأجراس الفضية، إذا حدث وكانت هناك أجراس فضية. لقد اتحدت أوروبا الشرقية والغربية وأمريكا من أجل هدف جليل هو صنع باتريشيا، فجاءت قطعة فريدة من الحسن والجمال، يصدق عليها القول المشهور «تقول للقمر من فضلك قم لأجلس مكانك».

فإذا كانت هى ست الحسن والجمال المعنية فى كل الحواديت الشعبية، فمن يكون إذن الشاطر حسن؟.. الإجابة تتطلب عمل تحريات واسعة عنها قبل أن أتقدم لدعوتها لفنجان القهوة. فى بلادى تستطيع أن تعرف أية معلومات عن أى شخص بسهولة عن طريق السعاة والفراشين الذين يعملون فى مكتبه فى مقابل هدايا صغيرة، تبدأ من سيجارة واحدة، وأحياناً بدون هدايا، ستجد دائماً متطوعين يأتون ليقصوا عليك أخبار فلان وعلان وأخبار فلانة وعلانة، ولكن الناس هنا صامتون صمت القبور، فعندما يعملون، يعملون فقط، يعملون فى صمت ولا يتبادلون من الكلمات إلا الضرورى جداً، اللازم للعمل.

إن الكلمة الوحيدة التى يتبادلونها وليس لها صلة مباشرة بالعمل هى لفظ التحية «هاى» هاى فقط وترجمتها فى قاموسنا (السلام عليكم ورحمة الله وبركاته.. كيفكم؟.. كله تمام؟.. وازى الصحة؟.. كيف الجماعة؟.. وكيف حال الأولاد.. عاملين إيه فى الدراسة؟.. أهلا وسهلا.. وأخبار فلان؟.. بخير؟.. الحمد لله.. وعلان؟ بخير.. ؟ الحمد لله.. هل تزوج فلان؟.. الحمد لله.. ربنا يتمم بخير.. هل تعلم أن علان قد حصل على الترقية بالأمس؟ إنه يستحق كل خير؟.. ياه.. تصور، الساعة الآن تقترب من الثانية.. لقد انتهت ساعات الدوام.. الوقت يمر سريعاً.. السلام عليكم).. يختصرون ذلك كله فى كلمة واحدة هى.. هاى.. ثم ينهمكون فى العمل. ولذلك استبعدت تماماً أن أعرف أى شىء عن باتريشيا من خلال موظفى البنك، فى الغالب هم

أيضاً لا يعرفون عنها أى شيء، ولمعت في ذهني فكرة. لماذا لا أستعين بشرطي سري خاص من النوع الذي نشاهده في مسلسلات التليفزيون الأمريكي إن المثل يقول. إذا كنت في روما، فافعل ما يفعله الإيطاليون. وبالقياس نستطيع أن نقول: إذا كنت في واشنطون، فافعل ما يفعله الواشنطنيون أو الوشانطة. وبالفعل أخذت أتصفح دليل التليفونات إلى أن عثرت على رقم تليفون مكتوب أمامه، مكتب شرطة للتحريات الخاصة. اتصلت به على الفور فحدد لي موعداً في اليوم التالي صباحاً.

على باب المكتب دفعت عشرة دولارات رسماً للدخول ثم قابلني الرجل في الموعد المحدد بالثانية بترحيب شديد قائلا: سوف أعطيك من وقتي خمس دقائق مقابل العشرة دولارات التي دفعتها.. أدخل في الموضوع فوراً.

– أريد معلومات عن شابة اسمها باتريشيا سنكلير، تعمل سكرتيرة رئيس قسم مراجعة حسابات العالم الثالث بالبنك الدولي.. هل هي متزوجة؟.. مخطوبة؟.. هل هي مرتبطة بعلاقة حب مع أحد..؟

– لماذا؟

– أريد أن أدعوها لتناول فنجان قهوة، لكي أدرسها عن قرب، إنني مكلف من أحد أصدقائي بالبحث عن عروس أمريكية.

– حسناً، أنت تريد الإجابة عن ثلاثة أسئلة، السؤال الواحد سيكلفك عشرين دولاراً.. أدفع ستين دولاراً، ووقع على هذا الإقرار ومضمونه

أن المعلومات التى ستحصل عليها عن طريق مكتبنا لن تستخدم فى إحداث أذى أو ضرر من أى نوع لأى مخلوق.

وقعت الإقرار ودفعت الستين دولاراً.. أنها على كل حال ليست مبلغاً كبيراً، إن الإنسان ليدفع عمره أحياناً ثمناً للمعرفة.

رفع الرجل سماعة التليفون فى حركة بوليسية خاطفة ولدهشتى الشديدة وجدته يطلب إيصاله بباتريشيا نفسها. قال لها: هنا مكتب كذا للتحريات الخاصة.. لدينا هنا رجل إفريقى يعمل عندكم يريد أن يدعوك لتناول قدح من القهوة ويود أن يعرف ما إذ كنت متزوجة أو مخطوبة أو تربطك علاقة حب بأحد.

استمع لها للحظات ثم وضع سماعة التليفون وهب واقفاً وهو يمد لى يده مصافحاً: ليست متزوجة وليست مخطوبة ولا تربطها علاقة حب بأحد.. وهى على استعداد لتناول القهوة معك إذا طلبت منها ذلك.. مع السلامة.

فى مقهى جميل اختارته هى من مقاهى ضاحية جورج تاون الجميلة، جلست مع باتريشيا نحتسى القهوة، إنها القهوة السادة الوحيدة فى حياتى التى كان لها طعم العسل. لقد بدأ الجزء الشائق فى الحدوته، لقد استطاع الشاطر حسن أن يصل لست الحسن والجمال، وتذكرت الجملة التى يرددها صديقى صاحب الباع الطويل فى مثل هذه المسائل: فى البدء كانت القهوة.

غداً سأدعوها على العشاء ثم أدع الأمور تجرى فى أعنتها ولن أبيت إلا خالى البال.. سأدع الأمور تجرى فى أعنتها إلى مالا حدود ومالا نهاية، أمريكا، كم أنت عظيمة ولم الانتظار إلى الغد.. سأدعوها الآن.. بعد تناول القهوة.

عرفت منها أنه قد مر عامان على آخر دعوة وجهت لها لتناول القهوة، السبب معروف بالطبع لا أحد يتخيل أنها ستلبى دعوته، تماماً كما لا يتخيل أحد أن ينزل القمر من السماء ليجلس على المقاهى.. لذلك يمتنع الجميع عن المحاولة، مجرد المحاولة.

بعد أن شربت القهوة نظرت فى ساعتها وقالت برقة: شكراً على القهوة.. أشكر لك هذه اللحظات اللطيفة.. هل تأذن لى الآن بالانصراف.. لدى موعد مع صديقى وهو يغضب جداً عندما أتأخر عليه.

– صديقك؟.. لقد فهمت أنه لا علاقة حب تربطك بأحد.

– ومن تكلم عن الحب؟.. هو صديقى فقط.. علاقتى به لم تتعد بعد مرحلة الصداقة.

انهارت أحلام بحجم جبال التبت بداخلى، تمزقت آمالى كلها فى لحظة واحدة وتناثرت على مساحة شاسعة من الجليد الذى يملأ قلبى، من الغريب أن الحواديت الشعبية القديمة لم تتحدث عن «الخايب حسن». لقد اتضح أن لها شاطر حسن أمريكيا تسميه صديقاً.

ضاعت أحلامى بنفس الطريقة التى ضاعت بها السبعون دولاراً من قبل.. لا داعى لغزو هذه المنطقة من العالم، إنها محصنة تماماً. قلت لها بحزن: حسناً يا آنسة.. سوف أقوم بتوصيلك..

ضحكت وقالت: توصلنى إلى أين؟.. إنه يسكن فى نفس المبنى الذى يقع فيه المقهى..

آه.. بنت الإيه.. لقد كانت فى حاجة لتوصيله .. أيتها الأرض.. ابلعينى.

من الغريب أن الأرض لم تبلعنى، ومن الغريب أيضاً أننى لم أمت من الخجل.

مرت أيام كئيبة متشابهة، من غرفتى للبنك ومن البنك لغرفتى تسليتى الوحيدة كانت منحصرة فى النوم أمام التليفزيون المفتوح كغالبية الشعب الأمريكى، كنت أحلم ليل نهار باللحظة التى أرى فيها زوجتى وأولادى.

وعدت..

هى تقول عن الزواج إنه عملية دوران فى ساقية، وهى محقة فى ذلك، فقط أضفت تعديلا بسيطاً، «أنا الذى أجر هذه الساقية».

ابنتى تريد أن تعرف

قلبت الأمر على كل وجوهه عدة مرات، فكرت فى عشرات الحلول، طرحت على نفسى مئات الأسئلة، وفى النهاية كانت هناك إجابة واحدة مؤلمة وبغيضة: الطلاق.

- وابنتك..؟

- ابنتى ستحصل على كل احتياجاتها، سأشاهدها مرة كل أسبوع، هناك أولاد يراهم آباؤهم مرة واحدة فى كل عام، من الأفضل لابنتى أن تبدأ فى التعرف على حقائق الحياة المؤلمة، من الأفضل لها ألا تحيا بصحبة أب تعس وأم تعسة وحياة تظللها المرارة والفتور، من المؤكد أنها تتألم الآن وبالقطع سيزداد ألمها بعد أن أترك المنزل، ولكنها - بالطبع - سوف تتقبل المسألة كأمر واقع بعد شهور، وهى ليست صغيرة، لقد تعدت العاشرة بشهور، وعلى كل حال، لست الإنسان الوحيد الذى يترك

ابنه أو ابنته بحثاً عن راحته الشخصية اللازمة والضرورية لعمله، فأنا مهندس تصميمات وعملي يتطلب كفاءة عقلية وذهناً صافياً أشعر بأنني لم أعد أتمتع بهما. وذلك بسبب الجو الكئيب المعذب الذي يحيطني في بيتي.

لا تسألوني عن الأسباب بالتفصيل. فلست أريد الدفاع عن نفسي ولا عن القرار الذي قررت اتخاذه، إننا مختلفان في كل شيء، هل سمعتم عن الشريك المخالف.. ؟ عندما أقول ما أجمل الشمس عندما تشرق، تتحدث عن الحزن الذي تشعر به في لحظات الغروب.. عندما يسعدني نسيم الشمال، فلابد أن تزعجها في اللحظة نفسها رياح الجنوب.

كما أنني أيضاً لا أريد اتهام زوجتي بشيء، فهي أسيرة لتركيبة نفسية لا يد لها فيها ولا حيلة، لقد نشأت في منزل مليء بالصرامة والقسوة مما جعلها يائسة من احتمال أن تقابل السعادة يوماً ما.. ولا حتى عن طريق الصدفة بل أصبحت تتفادى كل ما يمكن أن يكون سبباً للبهجة.

– مرة أخرى.. وابنتك؟

إنه لمن أبلغ آيات القسوة أن تطالبوني بأن أموت كمداً من أجل أن تسعد ابنتي. بعد سنوات قليلة سوف تتزوج وتعيش مع رجل آخر سوف يصبح كل شيء بالنسبة لها، ومن يعرف؟ هل ستزورني في الأعياد والمناسبات أم تكتفي بالسؤال عني في التليفون.

قررت أن تتم المسألة فى هدوء، اشتريت شقة صغيرة فى حى بعيد ووضعت فيها أقل القليل من قطع الأثاث، لن آخذ ملابسى، سأتركها، فقط أخذت بعض الأوراق والمستندات الهامة ووضعتها فى حقيبة جلدية صغيرة.. سوف أقوم بالتنفيذ الآن.. ليساعدنى الله.

جلست مع ابنتى فى غرفة المعيشة، كانت ابنتى تجلس على ركبتى تشاهد برنامج الكارتون فى التليفزيون وتضحك، لن أضعف، لو ضعفت الآن فسأدفع عمرى كله ثمناً للحظة الضعف هذه بمجرد انتهاء برنامج الأطفال، سوف أقبلها وأغادر البيت.. إلى الأبد هذه المرة.

انتهى برنامج الأطفال وجاءت نشرة الأخبار. كانت الفقرة الأولى عن الأرض المحتلة.. فاجأتنى ابنتى بسؤال: متى تم احتلال هذه الأرض؟.. ومن احتلها؟.. وكيف؟.. ولماذا؟

أنزلتها من فوق ركبتى مستعداً للانصراف: ستعرفين فى المدرسة يا حبيبتى.. فى العام القادم.. أو العام الذى يليه.

لفت ذراعيها حول رقبتى وقالت: لن أتركك إلا بعد أن تقول.. لماذا تريدنى أن انتظر عدة أعوام لكى أعرف.. أريد أن أعرف منك.. الآن.

حقاً.. لماذا تنتظر لتعرف فيما بعد..؟ هى تريد أن تعرف الآن. أجزاء مظلمة فى عقلى بدأت تضىء، إننى لست مجرد أب لهذه الإنسانة الصغيرة، إننى مصدر المعرفة الرئيسى لها، بنك المعلومات التى وضعت فيه رصيدها من المعرفة ومن حقها أن تسحب منه وقتما

تشاء، بنك للمعرفة والمعلومات تماماً كما أنا بنك للأبوة والحنان، إننى أعرف جيداً من قراءتى للتاريخ أن الأجيال التى تكف عن إعطاء المعرفة للأجيال التالية بدافع من التعاسة أو اليأس أو اللامبالاة، تحكم على نفسها بالعزلة التى تسلمها للاندثار، وما تعرفه ابنتى لابد أن يكون امتداداً لما أعرفه أنا دون أن يشكل ذلك قيداً على عقلها وتكوينها الفردى.. ومصادر المعرفة الحقه «يجب» أن تكون كالآبار القريبة ننهل منها عندما نشاء وإلا فإنها تصبح مصدراً للعذاب.

«يجب» ..

آه من كلمة يجب هذه.. ترى.. من أين تنبع قوة الإلزام الخلقى بداخل الإنسان.. من أين اكتسبت كلمة يجب هذه كل قداستها؟..

أعدت أوراقى ومستنداتى لأماكنها وارتديت جلبابى وواصلت شرح تاريخ المنطقة لابنتى.. مع الأيام، اكتشفت شيئاً جديداً تماماً.. لقد حولت ابنتى لبنك فتحت فيه حساباً جديداً، أخذت أودع فيه كل ما أستطيع من الود والحنان والاهتمام والمعرفة، وبعد سنوات طويلة، فى شيخوختى سوف أسحب من هذا الرصيد.

هل مازلت تتعذب..؟ نعم. ولكن أصبح لعذابى طعم جميل.. حزنى أصبح دافعاً للإبداع فى عملى.. أكثر من ذلك، بدأت اكتشف فى زوجتى مزايا لم أكن أراها من قبل.. لقد اكتشفت مثلا أنها..

عفواً.. لماذا لا نترك ذلك لاعتراف آخر..؟

سر الابتسامة الساحرة

بعض الرجال يكتسبون سحراً خاصاً بعد سن الخمسين. أعتقد أننى أنتمى لهذا البعض. وهذا هو أيضاً تفسيرى لتلك الابتسامة العذبة المليئة بالنداء والتى ترتسم على وجه السيدة البدينة الجميلة التى تجلس فى النادى بجوار حمام السباحة.

لم تكن المرة الأولى التى تصوب فيها هذه السيدة ابتسامتها نحوى فى إصرار، بل كانت المرة العشرين خلال هذا الأسبوع، نسيت أن أكلمكم عن نفسى، أنا رئيس الشئون القانونية فى مصلحة حكومية هامة، انشغالى الدائم بالقانون والقضايا والمحاكم اكسبنى ملامح جادة وصارمة وأضفى على سمة من ثقل الظل تنفر منى عادة الجنس اللطيف، لذلك مر عمرى كله دون مغامرة نسائية واحدة مكتفياً بسماع قصص مغامرات زملائى.

وحفيفة لست أدرى أى شيطان خبيث جعلنى هذه المرة أرد على ابتسامة هذه السيدة بابتسامة مشجعة قامت على إثرها من مكانها واقتربت تتهادى لتجلس على مقعد بجوارى، وبدأت تتحدث. استولى على صوتها الرقيق الجميل الأخاذ وهى تحكى عن شعورها المرير بالوحدة وبالضياع فى هذه الغابة الكبيرة التى تسمى الحياة. كانت واقعة فى مشكلة قانونية كبيرة بسبب أخوتها الذين يريدون الاستيلاء على أملاكها، بعد ربع ساعة بالضبط كانت تقود سيارتها الفارهة وأنا بجوارها فى طريقنا لفيلتها لنتعرض على كل الوثائق والمستندات الخاصة بالقضية لكى أقول لها رأيى القانونى فى مشكلتها.

بعد نصف ساعة كنت أجلس فى بهو الفيللا المنعزلة التى تعيش فيها بمفردها، حتى الشغالة تآمرت ضدها وتركتها. كنا وحدنا فى الفيللا البعيدة المنعزلة الواقعة وسط الحقول وهو جو يسمح بالفعل لدراسة المستندات والوثائق بهدوء وروية. تركتنى جالساً وذهبت لإحضار المستندات. مرت عشر دقائق طويلة ثقيلة قبل أن تظهر نازلة السلم، لم يكن معها مستندات ولا وثائق، لقد تحولت هى نفسها إلى وثيقة بشرية ترتدى ثيابا من النوع الذى ترتديه بطلات الأفلام التى يكتب على إعلاناتها جملة (للكبار فقط).

استولى على إحساس بالخوف لم أعرف مصدره، بدأ العرق البارد يتجمع على جبينى فى اللحظة التى جلست فيها إلى جوارى، همست وأنا أرتجف: أين المستندات؟

ما حدث بعد ذلك. حدث بسرعة يصعب تصورها، فوجئت بلطمة هائلة على وجهى وصوت أجش يصيح: مستندات إيه يابن الـ .. هيا أدخلى غرفتك يا بنت الـ ..

انفتحت كل أبواب الجحيم.. تقذف على حمما من الركلات والصفعات، كانوا ثلاثة رجال من المحترفين الأشداء يجيدون صنعتهم تماماً.

أخيراً وبعد لحظات كأنها قرون وجدت نفسى فى العراء بين الحقول بدون محفظتى وبدون ساعتى الثمينة، حتى الفلوس الفكة التى كانت فى جيوبى أخذها الأنذال.

وصلت منزلى عند الفجر، عندما فتحت لى زوجتى الباب همست فى فزع: مالك..؟ أين كنت..؟ ماذا حدث لك؟..

كان لابد من كذبة هائلة الحجم جيدة الصنع، محبوكة تفسر الكدمات التى تنتشر على وجهى وفى جسمى كله، بالإضافة إلى ثيابى الممزقة. أخذت أتحدث بصوت متهدج: تعرفين أننى كنت معتقلا منذ أعوام طويلة بسبب آرائى السياسية وتعرفين أننى تعرضت للتعذيب فى المعتقل، لقد أقسمت منذ ذلك الوقت أن أنتقم من معذبى يوماً ما.. مهما كانت الظروف، لقد كان قائد المعتقل بنفسه هو الذى يقوم بتعذيبى، واليوم وجدتنى وجهاً لوجه فجأة أمامه فى الشارع، لم أشعر بنفسى إلا وأنا أهجم عليه كالوحش الهائج، دارت بيننا معركة فظيعة، تجمع الناس

حولنا، توقفت حركة المرور، ولكنني لم أتركه إلا بعد أن حطمت ضلوعه وجعلت الدماء تنزف من كل مكان في جسده كالنافورة. فحملته سيارة الإسعاف بينما تمكنت من الإفلات، في الغالب لن يصل حياً إلى المستشفى. غير أنني للأسف فقدت محفظتي وبها أوراقي وساعتي أثناء المعركة..

طيبت زوجتي خاطري وأثنت على شجاعتي وأحضرت بعض الثلج والمراهم لتعالج كدماتي وإصاباتي.

رقدت في الفراش يومين، وفي الصباح اليوم الثالث أحسست بأنني قد استرددت عافيتي فطلبت طعام الفطور في الفراش ومعه جرائد الصباح، وفي صفحة الحوادث قرأت بالخط العريض ما يلي: «القبض على عصابة تستدرج الشخصيات الهامة من نادي (...) ثم الوصف التفصيلي للتكتيك الذي تتبعه العصابة، كانت الطريقة سهلة وبسيطة، وحاسمة للغاية.. تبتسم السيدة فتقع الضحية في الفخ، وفي الفيللا البعيدة، يظهر الرجال الثلاثة. وبالطبع الضحايا لن تجرؤ على إبلاغ الشرطة، ترى، من هو ذلك الرجل الشجاع الذي أبلغ عن العصابة، بالتأكيد هو رجل أعزب.. تضمن الخبر أيضاً نداء من الشرطة لضحايا العصابة للتوجه لقسم الشرطة لكي يأخذوا متعلقاتهم من أوراق بالإضافة لبطاقات هوياتهم التي وجدتها الشرطة في الفيللا.. بعد أن قرأت الخبر طويت الصحيفة وخبأتها تحت السرير.

فوجئت بزوجتى مرتدية ثياب الخروج.. قلت لها: ستتركيننى وأنا فى حالتى هذه؟

ردت بهدوء: .. لن أغيب.. أننى ذاهبة لإحضار حافظة نقودك.. بالطبع لن يجدوا بها النقود.. ولكن كل الأوراق التى بداخلها هامة.. أرجو أن أجد الساعة أيضاً.

أغمضت عينى وأنا أشعر بالخجل يسحقنى.. ومنذ ذلك اليوم أصبحت أكشر عن أنيابى فى مواجهة أى ابتسامة تصوبها ناحيتى أى امرأة، حتى لو كنت أشاهد فيلماً وابتسمت بطلته.

زوجتى هى الحكومة

أنا كاتب كبير. وكبار الكتاب فى شرقنا العربى يكتسبون هذا اللقب غالباً بفعل الزمن والتقادم وليس بسبب عظمة ما يكتبونه، هذا هو قدرنا، نبدأ موهوبين كباراً لا يعرفنا أحد وننتهى صغاراً متأكلى الموهبة يعرفنا كل الناس ونحظى بالاحترام والتكريم والجوائز والأوسمة فى كل مناسبة وغالباً بغير مناسبة.

نعم: أنا كاتب كبير أطل بوجهى على المتفرجين فى قنوات التليفزيون، وأطل بصوتى على مستمعى الإذاعة وأطل بقلمى على القراء فى عدة صحف وعدة مجلات. هذه هى المحصلة النهائية لسنوات طويلة تعلمت خلالها أن أطلى حديثى بطلاء مفتعل من الشجاعة الفكرية، وأن أقول كل ما هو قديم بشكل يبدو جديداً، وأن ألعب على كل الحبال ببراعة تفوق براعة لاعب «الترابيز» فى السيرك، وأن أبدو فى كل الأحوال لامعاً ومبهراً وحكيماً.

باختصار، لقد خنت موهبتى فى رحلتى الطويلة شيئاً فشيئاً فخانتنى شيئاً فشيئاً. والسبب.. زوجتى. أو بمعنى أدق، زواجى من زوجتى.

لقد أدركت منذ زمن بعيد أن الكاتب الذى يشق طريقه مستعيناً بموهبته وحدها، هو كاتب ساذج يتجاهل حقائق هذا العصر، وحقيقة الحقائق فى العالم الثالث وأكثرها نصوعاً ووضوحاً، هى السلطة، السلطة هى القمة، هى القلعة الحصينة التى لا يصل إليها أعداؤك. والتى ينكسر حول أسوارها حسادك والحاقدون ويسقطون حولها جثثا هامدة بلا قتال.

لم يحتج الأمر إلى تفكير للوصول لقرارى الحاسم.

ليس بالدفاع عن السلطة بالحق وبالباطل، أو بالتطبيل لها إذا أصابت أو أخطأت، فهذه أشكال غبية ومفضوحة من أشكال «الانضمام» ما أريده وماسأفعله هو أن أكون منها، أن أستولى عليها من الداخل تطبيقاً لقاعدة قديمة فى القتال، أن أفضل طريقة لاحتلال موقع هى أن تستولى عليه من الداخل.

كنت معيداً فى كلية الآداب فى ذلك الوقت، وكانت بعض الجرائد والمجلات تنشر لى قصصاً فى أوقات متباعدة، وكانت هى تعمل مدرسة وتكبرنى بسبعة أعوام، لم تكن جميلة أو متميزة، ولكنها كانت الأبنة الوحيدة لرجل من أهم رجال السلطة فى مجال الثقافة والإعلام. (فيما بعد قالت جرائد المعارضة إنها لا تصلح للتدريس فى مدرسة ابتدائية وهو قول قاس وإن كان صحيحا) .. أحببتها، ولا تظنوا أنى

تظاهرت بحبها، لقد أحببتها بالفعل، حباً قوياً ملك على مشاعرى، أصبحت فكرة زواجى منها هى الهدف الأسمى لحياتى (عرفت فيما بعد أنها كانت تخطط للزواج منى) ... وتزوجتها ... ومن الغريب أن زواجى منها كان بداية لسلسلة من الزيجات فى الوسط الصحفى والثقافى من النوع نفسه، كثيرون من أبناء جيلى ساروا على الدرب نفسه ليظفروا بالحماية اللازمة لمواهبهم.

اتضح للجميع بعد زواجى بأن موهبتى أكبر حجماً مما قدروا فى البداية، بدأ الجميع يطلبون قصصى ومقالاتى، انهالت على الدعوات والسفريات للخارج وعضوية اللجان والمؤتمرات، انهالت على الفلوس أيضاً.. الدنيا كلها أقبلت على بوجه باش بعد طول عبوس.

شيئان فقط كانا يبتعدان عنى، موهبتى، وشجاعتى العقلية.. تاهت منى الحقيقة، ولم أعد أرى إلا ما يراه أهل زوجتى الأعزاء، الذين يعملون جميعاً فى الحكومة.

أشهد بأن أحداً من رجال السلطة لم يطلب منى يوماً أن أكتب كذا أو أن أمتنع عن كتابة كيت. ذلك لأنهم جميعاً تركوا المسألة لحصافتى وحسن تقديرى. ولقد كنت بالفعل حصيفاً حسن التقدير.

وفى المرات القليلة النادرة التى كنت فيها صادقاً وشجاعاً ومحدداً فى كلماتى.. كانت تكشيرة زوجتى وأقاربها تردنى إلى صوابى وترد صوابى إلى. هكذا تم تطويعى حتى تحولت لكاتب كبير قولا لا فعلاً. عندما أهاجم فإن هجومى ينصب على كائن هلامى اسمه التسيب أو

الإهمال أو الجهل أو هؤلاء الذين يريدون العودة بنا إلى ظلام الماضى أو هؤلاء الذين يريدون القذف بنا إلى الأمام فى ظلام المستقبل بخطوات مغامرة غير محسوبة.

أما عندما أمدح، فإننى أمدح أشخاصاً محددين وأشياء محددة، ويقفز سؤال:

- هل كنت سعيداً مع زوجتى؟

بصراحة، لم يكن لدى الوقت الكافى لأسأل نفسى هذا السؤال، كنت مشغولا طول الوقت بإرضاء رؤسائى، أعمل ليل نهار وقد نسيت راحتى الشخصية تماماً، إلى أن جاء الوقت الذى اكتشفت فيه أننى كنت أكثر الناس تعاسة على ظهر هذا الكوكب، حدث انقلاب أطاح بالحكومة كلها، بكل أقارب زوجتى.

وجاءتنى مكالمة تليفونية من مسئول جديد يطلب منى أن أغادر مكتب الجريدة التى أرأس تحريرها إلى المنزل لحين صدور أوامر أخرى.

جلست فى المنزل هادئاً، أعاننى الهدوء على رؤية زوجتى على حقيقتها بعد عشرين عاماً من الزواج، لم تكن جميلة، ولم تكن متميزة، كانت كئيبة.

طلقتها، وعلى الفور بدأت كتابة سلسلة مقالات عنيفة نارية تفضح العهد البائد وأرسلتها لمكتب مسئول كبير يشرف على الصحافة.

اتصلت بى مديرة مكتبه وحددت لى موعداً لمقابلته، قال لى المسئول:

نحن نعرف أنك لست منهم ونعرف أنك كاتب منحاز للشعب، عد لصحيفتك، عد لتدافع عن الشعب (أحيانا فى بلادى يطلقون اسم الشعب على الحكومة) مديرة مكتبى ستتصل بك لتبلغك كل ظروفنا الجديدة (يقصد لكى تبلغنى بكل التعليمات الجديدة) ... لاشك أن التعاون بيننا سيكون مثمراً.. فكلانا منحاز للشعب..

وماذا حدث بعد ذلك؟

لاشئ.

تزوجت من مديرة مكتبه.

ليس لأحمى موهبتى هذه المرة. لقد خسرتها للأبد. ولكن لأحمى نفسى شخصياً.

من يدرى؟

ترى ماذا يفعلون بى إذا لم أتزوج منهم.

هى فى غرفة الصالون

اجتمعت اللجنة المركزية لعائلتى وأصدرت قراراً بأن أتزوج قبل أن أسافر للحصول على الدكتوراه. كان قراراً حاسماً لا رجعة فيه. وذلك لكى يضمنوا بشكل مؤكد ألا أقع فى غرام إحدى فتيات العم سام. وكأن المنطقة - بزواجى من أمريكية - ستفقد واحداً من أهم رجالاتها، وافقت بعد أن قررت بينى وبين نفسى أن أرفض كل فتاة يرشحونها لى.

أعلنت حالة الطوارئ فى كل فروع عائلتى فى طول البلاد وعرضها، تحول أفرادها إلى جهاز كبير منتشر للبحث والتحرى، تحولوا جميعاً إلى مخبرين يجمعون المعلومات عن فتيات الأسر التى يرون أنهن صالحات للزواج.

كونوا مجموعة عمل تعد كشوفاً بأسماء وعناوين الأسر وبمواعيد «الفرجة».. الفرجة على العروس، ثم شكلوا بعثة شرف ترافقنى

لمساعدتى على الاختيار. وروعى فى اختيار أفراد بعثة الشرف هذه أن يكونوا من أصحاب المناصب العالية والنفوذ فى عائلتى، ذلك لإحداث أكبر قدر من التأثير فى قلب الأعداء - أهل العروس - وإقناعهم بأن الحظ قد ابتسم لهم أخيراً بهبوط هذا العريس اللقطة، الذى هو أنا بالطبع.

بالفعل، أحرزت بعثة الشرف نجاحاً كبيراً، فكل الأسر التى زرناها كانت تقع فريسة الإعجاب الشديد إلى حد الفزع عندما كان كل فرد من المرافقين لى يكشف عن منصبه أو عن مركزه. أخذنا نتنقل من أسرة إلى أسرة، أقصد من غرفة صالون إلى غرفة صالون، وأنا بطبيعتى أكره غرف الصالون، إنها تحتم على أن أجلس متحفظاً للغاية، مبتسماً ابتسامات لا معنى لها وأسمع من الآخرين - ومنى أنا نفسى - كلمات لا معنى لها.

ولكثرة ما جلست فى حجرات الصالون، أصبحت خبيراً بأشكالها وطرزها. كما بدأت معدتى تختل لكثرة ما شربت من مشروبات لدى هذه الأسر التى نزورها. وبعد كل زيارة كانت أعين أعضاء بعثة الشرف تتعلق بشفتى منتظرة كلمة واحدة: موافق.

غير أننى فى كل مرة كنت أرفض وأتعلل بحجج متنوعة .. متوسطة الجمال، وحرف الفاء عندها غير واضح، تعتنى بأظافرها جداً وهذا معناه أنها لن تدخل المطبخ، بدينة جداً، نحيلة جداً، سمراء جداً.. كل شئ فيها معقول لولا أنها سمراء جداً.. أو لو كانت أقل سمرة ..

بيضاء جداً.. لا أحب هذا البياض الشاهق.. أما هذه فهى ممتازة فعلاً، ومن النوع الذى يعجبنى، ولكن ليتها كانت خمرية اللون.. أو حتى قمحية.

ولم تيأس اللجنة، استمرت فى عملها فى إصرار، فلقد كان موعد سفرى يقترب، إلى أن قابلتها، كانت الوحيدة التى أعجبتنى بالفعل، كان يشع من عينيها سحر خاص، هادئة، ليست صارخة الجمال ولكن تقاطيعها مريحة جداً، وحدثت المفاجأة التى وقعت على أعضاء بعثة الشرف وقع الصاعقة، رفضتنى.

كانت الوحيدة التى أعجبتنى فى كل هذه الزيارات الميدانية وكانت الوحيدة التى رفضتنى، غلى الدم فى عروق بعثة الشرف للإهانة التى لحقت بهم واستنكروا بشدة قولى بأننى إذا تزوجت فلن أتزوج إلا هذه الفتاة. وقفت خطيباً فيهم وأخذت أشرح لهم وجهة نظرى: يا سادتى.. هذه الفتاة ليست متعلقة بشخص آخر.. بدليل أنها جاءت لترانى فى غرفة الصالون، كما أنه من المستبعد تماماً أن تكون لها علاقات فكرية عاطفية بالاتحاد السوڤيتى تدفعها لعدم التعاطف مع فكرة السفر لأمريكا.. أما افتراض أنها لم تعجب بى.. فهو فرض مستحيل استبعده تماماً.. وأستطيع أن أجزم بأنها معجبة بى ولكنها رفضتنى بسبب لا يخطر لكم على بال.. السبب يا سادة هو التأثير السيئ الذى يحدثه الجلوس فى غرفة الصالون بين غرباء كل منهم تحولت عيناه إلى

طائرة استكشاف تحلق حول الفتاة وفوقها، هذه فتاة حساسة جداً وممتلئة بالكبرياء، وهذا ما أريده فى زوجة المستقبل.. دعونى أعمل وحدى، إننى أطلب منكم أن تجمدوا عمل اللجنة مؤقتاً وأن تعطونى الفرصة للعمل بمفردى.. أنا الذى سأتزوج وليس أنتم.. لابد من اللجوء لتكتيك آخر لمحاصرة العدو وتطويقه ثم اختراقه من أضعف نقطة فيه ثم الاستيلاء عليه فى النهاية والزواج منه، أقصد منها، من العروس.

وافقت بعثة الشرف على مضض وطالبتنى بعرض خطتى الجديدة عليهم ولكننى رفضت.

ذهبت لمنزلها مرتدياً قميصاً وبنطلوناً عاديين، ضغطت الجرس، رحبت بى الأم فى تحفظ، ودعتنى للجلوس فى غرفة الصالون ولكنى رفضت وطلبت الجلوس فى غرفة المعيشة.

قال لى الأب وأنا أحتسى معه القهوة : أنا شخصياً أرى أنك شخص ممتاز.. وهذا رأى والدتها أيضاً.. ولكننا عودناها على أن تتحمل وحدها مسئولية القرار الذى تتخذه.

عند ذلك قلت: لم آت لكى أطلب منكم الضغط عليها، كما لم آت لكى أطلب منها تغيير موقفها لقد جئت لأعتذر لها.

– ليس هناك موجب للاعتذار.. الزواج قسمة ونصيب.

– بالفعل .. لكنى أخطأت.. وأعرف خطئى.. وهى أيضاً تعرف خطئى .. لذلك يجب أن أعتذر لها شخصياً.

وجاءت هى ونظراتها مليئة بالتحدى المؤدب، سلمت على فى فتور وجلست قلقة. قلت لها: إننى أعتذر يا آنسة عن الحرج الذى سببته لك .. أنا أيضاً لا أوافق على الزواج بهذه الطريقة.. طريقة الفرجة فى غرفة الصالون.. إن الطريقة التى قدمتنى بها أسرتى تنفر الفتيات ذوات العقل الراجح.. لقد كان الحديث كله عن البعثة والسفر والحياة المريحة التى ستحياها معى الزوجة فى البعثة.. وكأن الزوجة من مستلزمات السفر.. جزء من حاجيات المسافر.. إننى أريد الزواج فعلاً بغض النظر عن البعثة.. أريد زوجة ذكية.. جميلة ومن أسرة طيبة كريمة.. وأنا واثق أن هذه المواصفات تتوافر فيك.. أريد زوجة أتمكن معها من مواجهة الدنيا والتغلب على متاعبها وصعوباتها.. ولكنى سيئ الحظ.. لأن الإنسان الذى ترفضينه أنت.. هو بالقطع، إنسان سيئ الحظ.

خف توترها، لانت ملامحها وابتسمت فى حياء وقد كست وجهها حمرة جميلة.

أستأذنتها لأنصرف فطلبت منى الأم أن أبقى لتناول العشاء وانسحبت لتعده فى المطبخ، وانسحب الأب ليجرى مكالمة طويلة جداً.

وعندما عادوا.

كنا نتحدث معاً.. نخطط للسفر..

لقد رفضتنى فى غرفة الصالون، ولكنها وافقت على فى غرفة المعيشة.

زوجتى . . . وآلام البشر

بعض الرجال فى هذا العالم محظوظون .. منهم من استطاع أن يكون ثروة كبيرة، منهم من حصل مجدا أدبيا وسياسياً أو فنياً عريضاً. أما أنا فمن الممكن اعتبارى أكثر الرجال حظا، فقد حققت - بفضل الله - قدراً معقولاً من المال يتيح لى حياة كريمة، وحققت أيضاً فى عملى نجاحاً يحسدنى البعض عليه، وبالإضافة لكل ذلك - وهذا هو المهم - فقد رزقنى الله بزوجة طيبة، رقيقة، عطوف، فائقة الحساسية والإنسانية.

خطبتها لى أمى بالطريقة التقليدية بعد فشل مرير لقصة حب طويلة انتهت إلى لا شئ. أسلمتنى لحالة من اليأس واللامبالاة وجعلتنى فى النهاية أرضى بأن أتزوج بالطريقة التى تزوج بها أجدادى.

بعد جلسة واحدة مع خطيبتى، اقتنعت، بل وآمنت أننى - بمحض الصدفة - قد وفقت إلى المرأة الكنز كما تصفها الحواديت والأساطير والتى يحلم بها أى رجل.

جميلة، رشيقة، جادة، تتكلم بلا تكلف أو تصنع فى صوت رقيق عذب خافت. ترتدى ملابس بسيطة رائعة الذوق، فهمها للاتجاهات السياسية لا يقل عن فهمها لكل المدارس الفلسفية القديمة والوسيطة والمعاصرة، حجة فى التاريخ، موسوعة فى الموسيقى، تجيد الطهو.. ضع كلمة تجيد واكتب بجوارها أى كلمة أخرى لكل ما هو جميل ومفيد فى هذا العالم، ستحصل فى النهاية على وصف دقيق لزوجتى.

سوف تقولون، يا بختك..

نعم. يا بختى. لكن المثل الشعبى يقول «الحلو لا يكتمل» انتظرو قليلاً حتى أكمل اعترافى، فى أسبوعين فقط انتهيت من إعداد (ڤيللتنا) الأنيقة التى ساهمت فى تهيئتها بلمساتها الحانية، حتى الحديقة، فوجئت بها توجه «الحدائقى» وتعطيه إرشاداتها بطريقة تؤكد فهمها العميق للزراعة وتنسيق الحدائق. من المؤكد أننى حتى الآن قد تزوجت من حورية جاءت من الجنة متنكرة فى هيئة البشر.

وفى رحلة شهر العسل، تبينت عيبها الأساسى الواحد والوحيد، كانت تنفعل بقوة بآلام الآخرين، وتشعر بمسئولية كبيرة تجاه البشر فى كل مكان.

وهل هذا عيب يا رجل؟ ألن تكفوا عن الأفتراء على النساء يا معشر الرجال..؟

انتظروا قليلا واستمعوا جيداً لاعترافى.

هل تعرفون مطعم «ماكسيم» فى باريس.. ؟ بالتأكيد أنتم تسمعون عنه كما كنت أسمع وأقرأ عنه طوال عمرى، اصطحبتها إلى هناك لننعم بعشاء فخم نظل نذكره فى قادم الأيام والسنين، وفى ذلك المطعم الفخم، كتيبة كاملة من الجارسونات والسفرجية جاءت ترصع مائدتنا بشهى الأطباق وبأصناف الطعام الفخم التى لم أعرفها من قبل والتى لم أكن اتخيل وجودها. بداية طيبة لشهر عسل لذيذ. أليس كذلك؟..

لا.. لم يكن الأمر كذلك ..

فوجئت بسحابة من الكآبة تعلو وجهها وهى تنظر بشرود لأطباق الطعام.

– مالك يا حبيبتى..؟

– لا.. لاشئ .. فقط كنت أفكر فى أطفال إفريقيا الذين يموتون جوعاً فى كل لحظة .. إن العالم اليوم تنقصه روح الأخوة الحقيقية.. هم فى النهاية بشر، وإخوة لنا ..

رسمت على وجهى مسحة حزينة وجادة وقلت لها مواسياً : يا حبيبتى.. إن العالم كله يرسل لهم الطائرات الضخمة محملة بالأغذية كل يوم، ولقد قرأت هذا الصباح عن رجل كندى تبرع لهم بمزرعته الكبيرة، سيبيعها ويعطيهم ثمنها.. الناس فى العالم كله متعاطفون معهم.

قالت برقة وهى تنظر للطعام فى حزن: وماذا فعلنا نحن.. ؟ أنا وأنت ؟.. ماذا فعلنا من أجلهم؟.. أرجو ألا أفقدك شهيتك بهذا

الحديث.. وأنا آسفة لخوضى فى هذا الموضوع فى هذه اللحظات لكنك سألتنى، وأنا لا أريد أن أخفى عنك ما أفكر فيه.

- طبعاً يا حبيبتى طبعاً.. وأنا أيضاً أقدر لك إحساسك بآلام الآخرين.. ولكن جربى هذه الشوربة، ذوقى هذه السلطة الرائعة، ما رأيك فى هذا الكافيار المدهش؟

اغتصبت ابتسامة شاحبة وأخذت تأكل بضع لقيمات بدافع من المجاملة وبشكل لا استمتاع فيه. أنا أيضاً فقدت شهيتى للأكل، ورفع الجرسونات - وقد أكفهرت وجوههم - الأطباق وعادوا بها كما هى. وكأن لم يمسسها بشر.

اقترب منى رئيس الجرسونات بوجه ممتقع، انحنى فى أدب وهمس فى أذنى: سيدى، من المعروف فى هذا المطعم العريق أن الأطباق التى تخرج للزبائن تعود ممسوحة تماماً.. هذه هى المرة الأولى فى تاريخ هذا المطعم التى تخرج فيها هذه الأطباق وتعود للمطبخ كما هى.. لقد أصيب رئيس الطباخين بانهيار عصبى، ومدير المطعم ينتظرك فى مكتبه لكى تقدم له تفسيراً لما حدث.. إن ما حدث منكما يا سيدى من الممكن أن يصيب السياحة فى فرنسا بأثار بالغة الخطورة، و... و...

بفرنسيتى الضعيفة، قضيت ساعتين أحاول إقناع مدير المطعم بأن العيب يكمن فينا نحن وليس فى طعامه، وفى النهاية كتب محضراً بالواقعة فى حضور مسئول السياحة فى باريس ووقعت عليه أنا وزوجتى لكى يؤمن موقف المطعم ويحمى سمعته فى حالة تسرب الخبر

للصحافة. خرجنا من المطعم فى تلك الليلة وأنا أكاد أموت جوعاً، أوصلتها للأوتيل ونزلت إلى الحى اللاتينى على الفور لأشترى سندوتشاً مغربياً مليئاً بالشطة وبأنواع أخرى من المتفجرات، وقضيت ليلة سوداء فى عاصمة النور تؤرقنى فيها الكوابيس وآلام المعدة وحرقان الغليظ، وإليكم قصة أخرى : فى قرية سويسرية ترقد فى أحضان الجبال الثلجية، وفى فندق قديم جميل، جلسنا فى بهو الفندق بجوار المدفأة نستمع لموسيقى موزار الشجية، تطلعت إليها فوجدتها تنظر بشرود لنيران المدفأة وقد أغرورقت عيناها بالدموع التى مالبثت أن بدأت تسيل على وجنتيها.

– ماذا بك يا حبيبتى .. ماذا يؤلمك ..؟

ردت بصوتها المليئ بالرقة والعطف : لا شئ .. أرجوك لا تسألنى .. لا أريد أن أفسد استمتاعك بهذه اللحظات الجميلة.

– أرجوك يا حبيبتى .. دعينى أشاركك فى أحزانك .. لماذا تبكين؟

أجابت : هذا الدفء .. هذا الجمال .. كم من البشر على ظهر هذا الكوكب يبحثون عنه ولا يجدونه.. كم من البشر الآن يرتعدون من البرد، وكم منهم تعذبهم حياتهم التعسة.

قلت لها وأنا أتثاءب :

– كثيرون يا حبيبتى .. كثيرون، من الأفضل أن ننهض الآن لننام

مبكراً .. لقد قررت أن أقطع شهر العسل وأن نسافر فى صباح الغد .. لابد أن أعود لعملى فوراً.

صاحت بدهشة : لماذا يا حبيبى ..؟

– بصراحة، تعذبنى فكرة أن الآخرين يعملون وأنا هنا أستمتع بالحياة فقط، كم من البشر يعملون الآن فى المناجم والمصانع، يكدون ويكدحون ويشقون بينما أنا هنا أستمتع بحياتى وبالدنيا فقط ولا أقدم للبشر أى شئ مفيد .. أصارحك القول، لقد استيقظ ضميرى أخيراً بفضلك .. لقد قررت قراراً لا رجعة فيه ألا استمتع بأى شئ.

ومن يومها، لم تحدثنى عن آلام البشر.

الاعتراف الرهيب

ما هو الاعتراف؟

فى تصورى الشخصى، الاعتراف هو عملية فصد نفسية وعصبية، يتخلص بها الإنسان من الأحمال الزائدة عن درجة تحمل جهازه العصبى والنفسى وذلك بإلقائها على الآخرين. لا يجب بالطبع أن يلقيها فوق رءوسهم أو على أكتافهم، ولكن عليه أن يلقيها تحت أقدامهم ليعاينوها جيداً. فتبصرهم بمنعطفات ومنحدرات الطريق الإنسانى اللانهائى وتجعلهم أكثر حكمة وأكثر خبرة.

الأصل إذن فى الاعتراف هو التخلص من الحقائق المرة المعذبة من أجل الحصول على الراحة النفسية وليس من أجل كشف الحقائق فى حد ذاتها.

إذ طبقنا هذه القاعدة على عدد كبير من اعترافات الأزواج السابقين استطعنا أن نقول باطمئنان إنها ليست اعترافات، إنها حكايات وهى أيضاً حيل نفسية جبانة للهروب من الاعتراف الحقيقى.

وهذا النوع من الاعترافات يفتقر للشجاعة اللازمة بالرغم من أن إدارة التحرير – رغبة منها فى حماية الأزواج المعترفين – لا تنشر أسماءهم. ومع ذلك فمن الواضح أن رعبهم من زوجاتهم يجعلهم لا يطمئنون لهذه المسألة. ولعلهم أيضاً يعتقدون أن لزوجة كل منهم عميلا أو مخبرا داخل أسرة التحرير، سوف يقوم بالإبلاغ عن وقائع اعترافاتهم.

لذلك نجدهم يحرصون فى اعترافاتهم على النهاية السعيدة المفبركة تماماً كالأفلام المصرية.

إننا – أزواجا وزوجات – لو عاملنا هذه الأعترافات بصدق حقيقى وشجاعة، لتمكنا بذلك من إنقاذ آلاف الزيجات الفاشلة والبيوت المنهارة ولقضينا على آلاف من العلاقات السيئة وأحللنا محلها علاقات سوية دافئة.

فلتكن الاعترافات هذه هى المنارة التى تضئ للآخرين حياتهم، ولتتحول لمصابيح تبدد الظلام من حياة الآخرين.

إن زوجاً واحداً شجاعاً يدلى باعترافات مفصلة عن الأخطاء القاتلة التى ارتكبها فى حق زوجته، سوف تمنع بالقطع أزواجاً من أرتكاب نفس الأخطاء. ولما كان هذا الأمر يتطلب قدراً من الشجاعة والفدائية يبدو أنه لم يعد يتوافر فى أزواج هذا العصر، لذلك قررت أن أكون هذا الزوج الشجاع.

سأعترف ..

سأعترف بالتفصيل ..

سوف يكون اعترافى مزلزلا مروعاً رهيباً وليحدث ما يحدث. وبالرغم من أننى أعلم سلفاً أن أعترافى سوف يجر على - وعلى أزواج العالم أيضاً - مصائب وكوارث كثيرة، غير أن ذلك لن يمنعنى من الاعتراف.

سوف أقول الحقيقة. كل الحقيقة ولا شئ غير الحقيقة. وليساعدنى الله.

ما أروع هذه اللحظة الحلوة التى يتخلص فيها الإنسان من رعبه من زوجته من أجل الاعتراف بالحقيقة. إنه إحساس - لو تعلمون - جميل وعظيم يرقى بنا إلى مدارج الإنسانية العليا. لذلك فإننى أطلب من القراء ضعاف القلوب أو ضعاف الأعصاب أن يمتنعوا عن قراءة اعترافى وإلا فإننى لست مسئولا عما يحدث لهم من هوله.

كما أطلب من علماء النفس والاجتماع وخبراء العلاقات الزوجية أن يفتحوا آذانهم وأعينهم جيداً وأن ينسوا كل ما تعلموه .. فمن المؤكد أنهم - بعد قراءة اعترافى - سيكتشفون مجاهل جديدة فى العلاقات الإنسانية، لم يعرفوها من قبل .. معذرة لهذه المقدمة الطويلة، ولكنكم تعلمون بالطبع أن الاعترافات الرهيبة لابد أن تسبقها مقدمة طويلة.. والآن إليكم اعترافى الرهيب : ...

ذات يوم من أيام الربيع الماضى .. ولكن عفوا .. كم الساعة معك من فضلك؟

الخامسة والربع .. يا إلهى لقد تأخرت ربع ساعة عن موعدى مع زوجتى .. نعم؟ الاعتراف؟ اعتراف إيه يا عزيزى .. زوجتى تقف الآن فى الشارع أمام الكوافير منذ خمس عشرة دقيقة كاملة .. ماذا أقول لها ..؟ طبعاً يا عزيزى أنا شجاع جداً .. وسوف أدلى باعترافى .. ولكن فيما بعد .. فيما بعد يا عزيزى .. لا تكن لحوحاً .. لماذا الإصرار على أن أعترف أنا بالذات ..؟ إبحث عن زوج آخر يعترف لك .. أرجوك يا عزيزى اتركنى .. أنت لا تعلم ماذا ستفعل بى زوجتى إذا تأخرت عن ذلك ..

سلام عليكم ...

واستعدت زوجتى

استمر نقاشنا هادئا فترة طويلة، وفجأة فقدت أعصابها وقالت بحدة : أسمع، لقد قررت ترشيح نفسى لمجلس الشعب، ولن يثنينى عن عزمى أحد .. أريد أن أشعر بكيانى وأن أمارس دورى فى خدمة هذا الشعب وهذا البلد، لقد تركنا لكم مقاليد الحكم والأمر والنهى، فأوصلتمونا إلى ما نحن فيه .

- وهل تعتقدين أن وصولك للبرلمان سيحل مشاكلنا ..؟

- وصولى أنا وغيرى من المخلصات المتحمسات قد يغير من صورة العمل السياسى، إن إدارة شئون الوطن لا تختلف كثيراً عن إدارة شئون البيت، فالوطن هو بيت كبير، ولن يفلح فى إدارته إلا ربات البيوت.

- سيمتص العمل السياسى كل جهدك ووقتك. لن تجدى دقيقة واحدة تخصصينها لبيتك.

– غير صحيح، فبالتنظيم الجيد للوقت يستطيع المرء أن يراعى شئون بيته وشئون وطنه .. إننى أعدك ألا أقصر فى حقك كزوجة وأعدك أيضاً ألا أتخلى عن دورى كربة بيت.. هل تعتقد أن السيدة مارجريت تاتشر أفضل منى ..؟

– أنت أجمل منها بكثير..

– أعلم أننى أجمل منها .. ولكنى أسألك عن شئ آخر. هل هى أفضل منى ؟

– بالطبع لا .. أنت أفضل منها بكثير..

– أنظر جيداً لملامحى .. بمن تذكرك؟ ألست أشبه السيدة أنديرا غاندى ..؟

– نعم يا عزيزتى .. نعم .. ولكن ..

– ولكن ماذا؟ .. ولكنك ستخسر جارية فى البيت تفنى عمرها فى خدمتك .. أليس كذلك؟

هكذا وافقت مرغماً على دخول زوجتى المعركة الأنتخابية، لم أوافق فقط، بل أظهرت حماسة وفرحة واضحتين.

وفى جولتها الانتخابية، أخذت تتردد على أماكن تجمعات البشر فى الدائرة الانتخابية التى رشحت نفسها بها، مصانع، مصالح حكومية، مقاه شعبية، نقابات، نواد، كانت تتناقش وتخطب فى الناس وهى تشرح

خطتها وبرنامجها فى ترشيد الحياة السياسية من أجل حياة أفضل للجيل الحالى والأجيال القادمة.

فى خلال عشرة أيام فقدت من وزنها عشرة كيلو جرامات، هالات سوداء قاتمة بدأت ترتسم حول عينيها، تغير صوتها، اكتسب بحة غريبة تذكرك بأصوات مطربى الموالد المشروخة. حدث تغير غريب فى ملامح وجهها، لم تعد تشبه السيدة أنديرا غاندى، أصبحت صورة طبق الأصل من غاندى نفسه، اعترف بأننى بدأت أشعر بالخوف منها، بالرغم من كل الحب والتقدير اللذين أكنهما لغاندى العظيم.

أيقظتنى ذات صباح صارخة، لماذا لم ترسل هذه الملابس للمكوى .. هل تعتقد أننى سأترك ما أنا فيه لكى أتفرغ لهذه الأمور التافهة ؟ .. لماذا لا تساعدنى ؟ .. لماذا لا تساعد بلدك ؟ .. وإلى متى هذه السلبية ؟.. العالم كله يتحرك للأمام، ونحن نتأخر بسبب السلبية واللامبالاة، استيقظ من فضلك، إن النيام لا يصنعون المستقبل.. أرسل هذه الملابس لمحل المكوجى فوراً.. ومر على السباك.. إن السخان لا يعمل منذ يومين.. كما أنه لابد من تغيير المحبس الرئيسى وألا فسوف تغرق الشقة .. إلا إذا كان الأمر لا يهمك .. أنت طبعاً لا يهمك أن تغرق الشقة أو تغرق المنطقة العربية.

قالت ذلك وغادرت الشقة مسرعة.

غداً اليوم الكبير، مئات الآلاف من البشر، سيذهبون للادلاء بأصواتهم، سيضعون تذاكرهم الانتخابية فى الصناديق، كل الأصوات التى ستحصل عليها زوجتى ستحول صندوقاً من هذه الصناديق لتابوت خشبى تدفن فيه حياتى الأسرية.. لقد غدت زوجتى غريبة عنى وهى مازالت على شاطئ العمل السياسى، ماذا سيحدث لى ولها عندما تتقاذفها الأمواج فى بحر السياسة الهائج المتلاطم.. لا يجب أن يحدث ذلك وبأى ثمن.

فى المساء، كانت تلقى بخطابها الحماسى فى سرادق كبير أقامه سكان الحى لمن يريد أن يتحدث من المرشحين وبعد أن انتهت من خطابها النارى الذى استولت به على أفئدة الجميع، أنصرفت مسرعة للمرور على بقية أنحاء الدائرة.

عند ذلك قام المرشح المنافس لها واعتلى المنصة وقال بصوت كالرعد : أيها السادة .. إن السيدة التى تهمل شئون بيتها وزوجها، ليست أمينة على شئون وطنها. انظروا .. انظروا إلى هذا الرجل المسكين الذى يقف فى نهاية السرادق .. انظروا إلى وجهه الحزين التعس وملابسه الرثة وحذائه الممزق .. إنه زوجها يا سادة .. سيكون هذا هو حالنا جميعا إذا اعطيناها أصواتنا.

التفت كل الحاضرين ناحيتى بينما أنا أنظر إلى الأرض فى تعاسة وخجل. وبعد لحظات أخذت أشق طريقى خارجاً من السرادق فى خطوات بطيئة يحسدنى عليها أى ممثل عبقرى.

أعلنت نتيجة الانتخابات، ودخلت زوجتى تاريخ الديمقراطية من أضيق الأبواب، بوصفها أول مرشح فى التاريخ يحصل على صوت واحد فقط. هو صوتها بالطبع، ونجح المرشح المنافس بفضل المشهد التمثيلى الرائع الذى اتفقنا معاً على أدائه.

من يومها وزوجتى تتحدث عن تزوير الانتخابات وخطورة ذلك على الديموقراطية وحركة التنمية .. و.. و.. إلخ، بينما أستمع إليها مؤمناً على كل حرف تقوله.

زوجتى مفتش مباحث

الخوف من فقدان الحبيب مرض يعرفه الأطباء النفسيون جيداً. وهو في الغالب يصيب الزوجات اللاتي يفتقرن إلي الوعي والنضج العاطفي اللازمين لممارسة الحياة بشكل هادئ. وأظهر علامات هذا المرض، هو الحرص الشديد علي الزوج إلي الدرجة التي تؤدي إلي فقدانه.

للأسف ...

زوجتي من هذا النوع .

اعترف أنها تحبني. ولكن علي طريقة ضابط الشرطة ومفتش المباحث. فقد تحولت إلي مكتب جمع معلومات علي هيئة كائن حي .. أين كنت؟ .. من كان معك؟ .. من هذا الذي اتصل بك؟ .. لماذا تحرص علي أناقتك هذا المساء.. ؟ إلي أين أنت ذاهب؟ كنت في البداية أجيبها ببساطة ومرح إلي أن فقدت القدرة علي التماسك في

مواجهة جو التحقيق الخانق المتوتر الذي تضعني فيه بمجرد عودتي إلي المنزل.

استولي علي إحساس دائم بأنني متهم في قضية لا أعرف أبعادها وتهمة لا أعرف تفاصيلها. طلبت منها بهدوء أكثر من مرة أن تبتعد بأسئلتها عن دائرة عملي. لأن عمل الرجل يعتبر مملكته وحده .. ولكنني لم أفلح في حملها علي الاقتناع بذلك. وفي أحيان كثيرة كنت افقد أعصابي في مواجهتها. وكانت هي عقب كل ثورة من ثوراتي تمتنع عدة أيام عن توجيه الأسئلة مكتفية بتوجيه نظرات الشك الباردة التي هي أسوأ من كل الأسئلة. هل هناك ما أخفيه عنها؟

نعم.

لقد استدعاني طبيبها المعالج وقال لي بصوت خافت وعطف كأنه يواسيني: زوجتك لن تنجب.. وعليك أن تتقبل هذه الحقيقة بشجاعة.. إنه قدرك..

نزل علي الخبر نزول الصاعقة، فقد كنت أحبها، ولست من هواة الزواج مرة ثانية وثالثة بحثاً عن الإنجاب فضلا عن أنني أكره أن أسبب ألماً لأي إنسان، فما بالك بزوجتي؟

لم أخبرها بما قاله لي الطبيب، بل وأخفيت عنها خبر زيارتي له، وأخذت أفكر في خطة أنقذ بها زواجنا.

وذات صباح قلت لها :

– تعرفين عبد الحميد الذي يعمل مديراً لمكتبي .. لقد ترك الشركة .. وأنا أفكر في تعيين سكرتيرة بدلا منه .

عند ذلك صرخت ..

– سكرتيرة .. لا .. لا ..

رددت عليها ببرود، ولماذا لا .. لا .. لا .. ؟

– لا وبدون إبداء الأسباب.

عند ذلك صرخت في وجهها: هل تريدين أن ينهار مكتبي .. هل تريدينني أن أفلس لكي أبقي هنا بجوارك أتسول القوت .. كنت أنتظر منك أن تساعديني وتختاري لي السكرتيرة بنفسك.

وقعت في الفخ ببساطة، قبلت أن تعمل هي سكرتيرة لي .. وبدأت مرحلة جديدة في حياتي..

خسرت زوجة مزعجة وكسبت سكرتيرة جميلة مطيعة.. هادئة.. متفانية تعمل ليل نهار علي راحتي فعلا.. لقد كانت حريصة علي أن تبدو دائماً بمظهر لائق أمام الآخرين من موظفي المكتب. وبدأ الهدوء يعرف طريقه لحياتي. فقد حولت كل اهتمامها المتوتر الموجه إلي شخصي إلي اهتمام بناء موجه لعملي.

وفي هذا المناخ الجديد كان من الطبيعي أن أقوم أنا بإصدار الأوامر وتوجيه الأسئلة طوال النهار.

– أين ملف الشركة الفلانية؟ .. هل وصللك الرد من الشركة العلانية؟

ولماذا لم تعرضيه علي في حينه؟ .. لماذا لم تقومي بتسجيل محضر الاجتماع السابق؟ .. هل تنتظرين أن أقوم بتسجيله بنفسي؟ .. هل العمل ثقيل عليك؟ .. لماذا لا تبذلين مجهوداً أكبر..؟ هل تفضلين أن أقوم بتعين سكرتيرة أخري..؟

لا تصلح للمحاماة

أعمل مدرساً في إحدى المدارس الإعدادية، وبعد انتهاء اليوم الدراسى أعمل سائق تاكسى حتى الثامنة مساء، بعد ذلك أعمل مغنياً مع وقف التنفيذ في فرقة موسيقية محترمة تابعة للدولة تقدم الغناء والموسيقى الشرقية. أقصد بوقف التنفيذ هنا، أننى مجرد عضو فى فريق الكورال أو كما يسمونه أحياناً «الكورس» المصاحب للمغنى أو المغنية. وبالرغم من قوة صوتى وعذوبته وحساسية أدائى بشهادة الجميع إلا أن مسئول الفرقة كان يرى أننى مازلت فى حاجة لتدريب طويل قبل أن يسمح بتقديمى للجمهور فى أغنية فردية.

كان عملى فى هذه الفرقة المحترمة ينتهى بعد منتصف الليل بقليل، بعدها كنت أجرى مسرعاً للحاق بفرقة موسيقية أخرى أقل أحتراماً تعمل فى ملهى ليلى، وآخذ مكانى أيضاً بين أفراد «الكورس» خلف المطرب فى دائرة الظل نردد جملاً غنائية سخيفة خلف مغنى

قبيح يردد كلاماً أكثر سخافة. وعند الفجر أعود لغرفتى وقد امتلأت برغبة واحدة هى أن أصل لسريرى.

كنت متزوجاً مع وقف التنفيذ أيضاً، فدخولى بزوجتى لن يتم إلا بعد سداد خمسين ألف جنيه ثمناً لشقة صغيرة من غرفتين وصالة فى حى شعبى. ولذلك كان على أن أعمل ليل نهار ولمدة خمسة أعوام.

انتهيت من دفع قسط الشقة الأخير، وفى الشهر القادم سيتم زفافى على زوجتى. بعد ذلك أكافح للخروج من إسار «الكورس» والتقدم نحو الميكروفون والغناء بمفردى، لتبدأ مرحلة أخرى من حياتى. نعم، فأنا مؤمن بالتخطيط وبأن على الإنسان أن يقسم حياته إلى محطات يصل إليها واحدة بعد الأخرى بكل ما يملك من إصرار.

ولكن يبدو أن صاحب العمارة كان يخطط لحياته هو الآخر بشكل مخالف لتخطيطى، فبعد أن انتهى من تشطيبها تماماً، اختفى. استولى على فلوس أصحاب الشقق وسافر إلى أمريكا بعد أن باع العمارة لآخرين، قاموا بدورهم ببيعها لآخرين، سجلوها بدورهم فى الشهر العقارى بأسماء سكان آخرين.

ضاعت الخمسون ألف جنيه وضاعت زوجتى أيضاً. فقد صارحنى أهلها بأننى مسئول عما حدث، فقد كان الواجب أن أتأكد من أمانة صاحب العمارة ومن أنه ليس لصاً. صارحونى أيضاً بأن شخصاً فى سذاجتى لا يصلح زوجاً لابنتهم.

شكلنا مجموعة من ضحايا صاحب العمارة وذهبنا للمسئولين فى كل مكان، فقابلونا بالابتسامات اللازمة ووعدونا بأنهم سيقومون بعمل اللازم.

أخبرنى أحد أصدقائى بأنه لابد من اللجوء لمحام قدير فى مثل تلك الأمور، فذهبت إلى الأستاذ (ع. ل) وهو محام كبير له سمعة طيبة.

استمع لى المحام حوالى دقيقتين ثم حولنى إلى الأستاذة (هناء) التى تعمل محامية تت التمرين فى مكتبه حيث إنها تخصصت فى هذا النوع من القضايا.

كانت فى حوالى الخامسة والعشرين من عمرها. جميلة، رقيقة، تعلو وجهها نضارة محببة، هى بكل المقاييس لا تصلح لعالم المحاماة والمحاكم والتقاضى.

طلبت منى أن أقص عليها حكايتى بكل تفاصيلها، فسردتها عليها دون أن تقاطعنى. ولكننى استطعت أن ألمح الدموع فى عينيها عندما أخبرتها بأن مصيبتى ليست فى ضياع الفلوس أو الزوجة، ولكن فى ضياع فرصتى فى الغناء الفردى. لقد حدد مسئول الفرقة حفل الغد لكى يقدمنى للجمهور. ولكننى لست فى حالة نفسية تؤهلنى للغناء. ولست أدرى بعد كم من الأعوام ستأتينى فرصة أخرى.

قالت الأستاذة هناء (هناء فقط فيما بعد) : أريد أن أطمئنك لحقيقة هامة، أرجو ألا يداخلك الشك فيها أو تراودك الآمال الكاذبة بشأنها. لقد خسرت فلوسك للأبد. كما خسرت زوجتك، أنت فى كارثة حقيقية. وأنا أطلب منك أن تحمد الله على كل هذا الألم الذى تشعر به ... هذا هو مكسبك الوحيد والعظيم معاً.. وإذا لم تفطن لهذه الثروة التى هبطت عليك من السماء فستتحول لإنسان تعس لا يصلح لشئ.

- ثروة؟ .. ماذا تقولين يا أستاذة؟

- هل تريدنى أن أخدعك؟ .. هل تريدنى أن أغذيك بالآمال الكاذبة واسحب منك فى مقابلها المزيد من الفلوس.. ؟ لقد ضاعت فلوسك... ولم يبق لك غير الألم.. لم يعد أمامك إلا أن تغنى.. غن بكل ما تملك من ألم وعذاب.. أقفز فوق نيران عذابك.. وطر فوق السحاب.. قف أمام الميكروفون وغن.. أن ضياعك الوحيد يكمن فى استسلامك.. فلا تستسلم للهزيمة.

ساد الصمت بيننا وأنا أحاول استيعاب كلماتها.. ثم قالت : أنا أحضر كل عروض فرقتكم الموسيقية وكثيراً ما رأيتك تغنى بين الكورس فى اندماج وإخلاص.. وأريد أن أسمعك تغنى بمفردك.. وبعد أن تغنى سوف نناقش معاً الإجراءات الواجبة لاستعادة فلوسك.. ولكن لا تنسى أننى صارحتك بأنك لن تستردها.

وغنيت ...

تركت صفوف الكورس وتقدمت صوب الميكروفون بإحساس الفارس الجريح الذى يخترق الصفوف وهو ينزف ليقف على خط الغناء الأول.

كل ألامى وإحباطاتى وإنهاك السنين تفجرت فجأة صوتاً قوياً جميلاً منفرداً. كنت أبكى من الألم والفرحة وأنا أواصل الغناء. أغرقت الدموع عينى فلم أعد أرى الجمهور بل لم أعد استمع لصيحات التهليل والإعجاب .. قال لى زملائى فى تلك الليلة اننى لم أكن أنا الذى يغنى.. لابد أنه شخص آخر كان مختبئاً بداخلى طوال السنين

الماضية.. إنساناً واحداً كنت أراه بوضوح يجلس فى المقاعد الأولى.. هو هناء.. بعد أن انتهيت من الغناء التف حوالى زملائى وبعض المعجبين من الجمهور.. إنهال على مسئول الفرقة عناقاً وتقبيلاً. تقدم ناحيتى شخص تبدو عليه إمارات الثراء قائلاً: نريد أن نسجل لك شريطاً.. أنا صاحب شركة النجوم الجديدة.

عند ذلك تقدمت منه هناء فى تحد : لقد سبقناك يا أستاذ .. أنا مندوبة شركة الغد للصوتيات.. جئت للاتفاق معه على خمسة شرائط .. وليس شريطاً واحداً.. وسوف ندفع له مبلغاً لن تقدر عليه ميزانية شركتكم.. سندفع له أربعين ألف جنيه ..

عند ذلك صرخ الرجل فى وجهها: ماذا تقولين يا أنسة؟ .. أنت لا تعرفين مع من تتكلمين.. سندفع له خمسين ألفاً.. وسنوفر له أعظم الملحنين والموسيقيين. من أنتم؟ .. أننى لم أسمع عنكم من قبل.

عند ذلك انسحبت هناء متظاهرة بالغضب والهزيمة.

وفى الغد ذهبت إلى مكتب المحامى لأشكرها.. ثم تكلمنا عن الحفل القادم وأغنيتى القادمة .. وتركت هناء المحاماة.

ألم أقل لكم إنها لاتصلح لهذا النوع من العمل. هى تصلح زوجة لى فقط.

الغطاء

انتهى دور النجار فى تنفيذ الصالون الخشبى الغريب، والمكون من أريكة ومقعدين وطاولة صغيرة. ولكنه مازال فى حالته الخشبية الأولية، لم يصبح بعد صالوناً يصلح للاستخدام لابد من تنجيده وكسوته بقماش من نوع فريد. وهذا النوع الفريد يمكن الحصول عليه من أحد مصانع النسيج الصغيرة التى تتولى صنع الأقمشة الفريدة.

وبدأت رحلة البحث عن القماش.. فى النهاية، دلنا خالها على المصنع الذى تمتلكه مجموعة من الفنانين التشكيليين الناجحين الذين يقومون برسم الأشكال الجديدة الأصيلة، ثم يحولونها إلى أقمشة ستائر وكسوة صالونات يخصون بها الفنادق الكبيرة، التى تضمن فى هذه الحالة عدم تكرارها فى أماكن أخرى، لكى يحتفظ كل فندق بطابعه مميزاً.

قابلنا مدير المصنع الذى عرض علينا عشرات الرسوم والتصميمات والنماذج الجديدة وهى بالفعل جميلة، ولا مثيل لها فى السوق. إلا أن كل هذه النماذج لم تعجبها، وأخرجت من حقيبة يدها صورة فوتوغرافية التقطتها للصالون الخشبى وقالت للرجل: كل هذه الرسوم والتشكيلات تصلح للصالونات العادية، ولكن صالوننا فريد.

تأمل الرجل الصورة الفوتوغرافية وقال: إنه فريد بالفعل، لم أشاهده من قبل، ولا أعتقد أننى سأشاهده فى مستقبل الأيام، أنت على حق ياسيدتى، لا شئ مما لدينا يصلح له. سوف أكلف أحد فنانينا الممتازين المجددين برسم وتصميم قماش جديد يصلح كسوة لهذا الصالون.

ابتهجت وقالت: أريد وحدات من الزخرفة المتكررة التى تستخدم الحرف الفارسى أو الكوفى، أو كليهما معاً فى امتزاج فنى وتناغم تشكيلى. كما أفضل أن تكون الخلفية أو الأرضية منتمية قدر الإمكان للمذهب فأريدها مبهجة، زاهية، واضحة، تعطى إحساساً بالتفاؤل والإنشراح. ولا مانع من بعض المساحات اللونية القائمة التى تعطى معادلاً موضوعياً حزيناً للألوان الزاهية المتفائلة. فيما عدا ذلك أنا أعطى للفنان الذى سيقوم بعمل الرسوم حريته كاملة غير منقوصة لكى يتفرغ للإبداع.

أجاب الرجل بمودة: لقد فهمت تماماً الآن ما تريدينه يا سيدتى. إن إلمامك الواسع بالفن التشكيلى سوف يسهل مهمتنا إلى أقصى حد.

وبدأت رحلة الألف ميل.. نعم الألف ميل قطعتها فى الصيف والشتاء، فى البرد والحر، فى الأمطار والأعاصير، وفى الجو الصافى

الرائق الذى كان يجب أن أتمتع به بشكل مختلف. ألف ميل قطعتها رائحاً لمصنع النسيج، غادياً من مصنع النسيج.

عشرات من الفنانين عملوا فى التصميمات والرسوم، مئات الساعات قضيناها فى النقاش الحاد والودى والغاضب مع الفنانين لعمل التعديلات فى الخطوط والألوان التى ترى زوجتى تعديلها.

هل من الممكن أن يكون هذا اللون الأحمر برتقالياً؟ هل يمكن أن يخف هذا اللون الأزرق ويشف ويرق حتى يصبح بلون السماء، وليس بلون البحر؟ هذا الأخضر قاتم، أريده بلون الزرع؟ هل يمكن لهذه أن تكون صفراء بدلاً من اللون البنى؟ ما هذه الوحدة الزخرفية؟ هل هى حبة باذنجان؟ لا يا سيدتى، إنها بقعة لونية لعمل التوازن الفنى بين هذا اللون وذاك. حسناً أكسر هذه الإنحناءة هنا. خفف هذا اللون هناك. ويرد الرجل: فى هذه الحالة ستصبح وحدة الزخرفة مستديرة، وسوف تعطى لمن يراها انطباعاً قوياً أنها حبة قلقاس، أنا أفضل أن نتركها هكذا.

حسناً أتركها هكذا ولكن خفف اللون قليلاً.

انتهت رحلة الألف ميل. وافقت على التصميمات النهائية بعد إجراء مئات التعديلات التى طلبتها فى الألوان وفى الخطوط والوحدات الزخرفية. لم يصدق الرجل أذنيه عندما سمعها تقول: موافقة.

لذلك طلب منها موافقة خطية وأن توقع بإمضائها على التصميمات وتنفست الصعداء. جبل كبير كان يجثم على أنفاسى إنزاح وذهب بعيداً. هم مقيم قرر أن يرحل بعيداً عنى، ولكن المشكلة لم تنته بعد.

سألنا مدير المصنع: ما هى خامة الخيوط التى تريدون استخدامها فى النسيج المطلوب؟

سألته: ما هى الخامات التى تستخدمونها؟

قال: تيل، صوف، قطن، كتان، حرير صناعى، نايلون، خيوط صناعية.

قالت: إنى أريد..

عند ذلك قاطعها الرجل وهو يصيح صيحة اهتزت لها جدران المصنع وجدران البيوت المحيطة به، وفى الغالب سجلتها مراكز الأرصاد المحيطة بالمنطقة العربية: أعرف ما تريدين يا سيدتى، أنت تريدين نسيجاً خاصاً فريداً من نوعه. هو مزيج من التيل، والقطن والصوف، والكتان، والحرير الصناعى، وخيوط النايلون والبلاستيك، والبلاستونيل والبلاستوفستك، والبلاستوسيد.

ردت بهدوء: نعم.. بالضبط هذا هو ما أريده تماماً.

كانت هذه هى المرة الأولى فى حياتى التى أراها توافق على شيء بسهولة بمجرد عرضه عليها.

أخذنا القماش ودفعنا ثمنه. بالطبع أضاف صاحب المصنع للفاتورة ثمن المتاعب التى سببناها له. وعندما خرجنا، كان من السهل علىَّ أن ألمح نظرات الارتياح فى عيون كل العاملين فى المصنع. (علمت فيما بعد أن صاحب المصنع أعطى أمراً للحراس والخفراء بمنعنا من الدخول لأى سبب. وسلمهم كميات إضافية من الذخيرة وطلب منهم الضرب

فى المليان إذا استدعى الأمر. ولكننى استبعد ذلك ولا أصدقه، فنحن لم نؤذه إلى الحد الذى يجعله يفكرُ فى قتلنا) .

أخذنا القماش الفريد وذهبنا للمنجد الذى فرده وأخذ يتأمله بدهشة ثم قال: لولا أننى أعرف أن بيكاسو قد مات، لظننت أنه هو الذى رسمه فى حالة إحساسه بالضياع بعد خروجه من أسبانيا. أو لعله من رسم أحد تلامذته، من أين أتيتم بهذا القماش الغريب؟

ـ من مصنع قريب، سوف أعطيك عنوانه.

أرجوك أعطنى عنوانه. أنا فى حاجة شديدة لهذا العنوان.

(عرفت فيما بعد أن الرجل حصل على عنوان المصنع لكى يحذر زبائنه من الذهاب إليه أو التعامل معه أو المرور فى دائرته) .

هل هبطت عليك ألف مليون دولار من السماء من حيث لا تدرى؟ هل منحت جائزة نوبل؟ هل تمت ترقيتك إلى درجة وزير بعد ساعة واحدة من تعيينك فراشاً؟

لقد شعرت أنا بالفرحة الناتجة عن كل ذلك عندما جاء الصالون المنشود أخيراً، وأخذ مكانه فى الركن المحدد له.

جلست على الأريكة بخفة وأنا أحتسى قهوتى. أقول جلست بخفة لأن شكلها لا يوحى بالمتانة مطلقاً، وأحسست بخوف غامض عندما قفزت إلى ذاكرتى نكتة قديمة تقول: اشترى أحد الناس أريكة فإنهارت على الأرض فى نفس اليوم. إذ لم تحتمل ثقله عندما جلس عليها.

وعندما ذهب إلى البائع معاتباً ثائراً رد عليه بدهشة شديدة: تقول كسرت؟ مستحيل، لابد أن أحداً قد جلس عليها.

استبعدت ذلك الخاطر المخيف، لأن الأريكة متينة فعلاً، وإن كان شكلها لا يوحى بذلك.

ولكن يا إلهى، أشعر بانقباض، ترى، ما هو سر ذلك الخوف الغامض الذى أشعر به الآن؟

ولم يتأخر الجواب، جاء سريعاً. إذ قالت: والآن يا عزيزى، جاء دور الغطاء.

ـ أى غطاء؟

ـ غطاء الصالون، هل سنتركه عارياً هكذا ليتسخ من أيدى الجالسين؟ هل سنترك هذا القماش الجميل معرضاً للتراب ولوقع القهوة والشاى عليه؟ هذا القماش فى حد ذاته لوحة فنية نادرة ولابد من حمايته. لابد أن نغطيه بغطاء من أى قماش رخيص وبسيط. لن أصعب المسألة، اختر اللون الذى تريده والخامة التى تريدها.

نهاية أحلام السيطرة

(لست أذكر الظروف التى حصلت فيها على هذا الاعتراف من صاحبته. كما لا أذكر الظروف التى جعلته يحتل مكاناً بين اعترافات الرجال، غير أننى قررت إثباته لطبيعته التى تكاد تكون «رجالى»، ع .س.).

عرفت الكثير عن الحياة الزوجية من خلال أحاديث وخبرات قريباتى المتزوجات والمطلقات بغية أن أصل إلى نظرية متكاملة فى العلاقات الزوجية تكفل لى النجاح كزوجة عندما يتقدم لى ابن الحلال. ولذلك عندما جاء حسن ليخطبنى كنت مسلحة بقدر كبير جداً من الفهم لطبيعة العلاقة بين الجنسين. لم تخدعنى طيبة قلبه الواضحة وتهذيبه ودماثة خلقه، فالرجال لديهم قدرة على التمثيل والخداع ما يدرينى ومن يدرينى أن هذا السلوك يمثل حقيقته بالفعل؟ .. لذلك حرصت خلال مرحلة الخطوبة على معاملته ببرود ولكن ليس على طول الخط،

فقد كنت ابتسم له أحياناً بل وكنت أيضاً أشكره باقتضاب وخاصة عندما يحضر لى بعض الهدايا.

وزاد حرصى بعد عقد القران على أن أؤكد له أننا لم نتزوج بعد وأننا من وجهة النظر العملية مازلنا مخطوبين، ومع ذلك – ولكيلا يتهمنى أحد بالفظاظة – فقد كنت أسمح له أحياناً أن يلمس يدى ولكنى لم أكن أبقيها فى يده طويلا. لا يجب أن يشعر حسن أننى مدلهة فى حبه فأن هذا يسئ إلى صورتى كزوجة وكأنثى. بل ان حسن معاملتى له قد يدفعه لأن يسئ معاملتى ويدفعه لمحاولة السيطرة علىّ. الأمر الذى ارفضه بحزم وحسم.

غير أنه لن يفهم ذلك عملياً إلا إذا قمت أنا بالسيطرة عليه. إن سيطرتى عليه ستجعل منه خاتماً فى إصبعى وسوف تحميه من أى أفكار خاطئة تتسلل إلى عقله. وبالرغم من أن حب السيطرة ليس صفة أصيلة فى إلا أننى أفتعلها حرصاً على بيتنا. إن نجاته ونجاتى ونجاة قاربنا الزوجى فى بحر الحياة المتلاطم متوقفه جميعاً على إحكام سيطرتى عليه. وبذلك نصل إلى السعادة التى ينشدها كل زوج زوجة.

البيت هو مملكتى، وأنا المسئولة عن كل شئ فيه، بما فى ذلك حسن. ولكى لا يعرف أن آرائى هامة لا تقل أهمية عن آرائه لم أكن ألتقى معه فى شئ. عندما يقول شمال أقول يمين. يقول فوق أقول تحت، يقول أبيض أقول أسود. يقترح أن نقضى الصيف فى قبرص

فأصر على الذهاب لرودس، يكلمنى عن عادل إمام فامتدح يونس شلبى، يبدى إعجابه الشديد بسعاد حسنى فأُبدى إعجابى الأشد بفاطمة رشدى. عندما كان يحدثنى بفرحة الأطفال عن نجاحه فى العمل كنت أعلق على ذلك ببرود وبلا حماسة. ماذا يظن هذا الرجل هل يظن أنى سأخر صريعة إعجابى بنجاحه .. فى النهاية هو ينجح لنفسه. لا يجب أن يشعر الرجل أن نجاحه سيمكنه من فرض سيطرته على زوجته.. وعندما كان يفشل فى شئ كنت ألومه بشدة بالطبع، لكيلا يستمر فى الفشل ويستسلم له. وبما أننى أكره المفاجأت لذلك كنت حريصة على أن أعرف كل شئ عنه. فلم أكتف بالتحقيق معه كل يوم، أقصد بسؤاله كل يوم، بل كنت أقوم بتفتيش أوراقه وجيوبه. إن هذه الطريقة ناجحة تماماً للاطمئنان على سلوك الزوج. بالطبع كان يثور أحياناً كأى زوج ويدعى أننى أعامله معاملة رديئة، وعلى الفور كنت أشن عليه هجوماً مضاداً ثم انخرط فى نوبة بكاء حادة. فكان يستسلم ليثور بعد فترة. إنه مازال يقاوم. ولكنه فى النهاية سيخسر كل معاركه ويهدأ ويتحول إلى إنسان لطيف مطيع بعد أن أثبت له بوضوح وبكل الطرق أنه غير قادر على السيطرة علىّ، وأن سعادته وراحة أعصابه وهدوء باله أمور سهلة التحقيق بشرط أن يطيعنى.

ولكن يبدو أن الرجال لا يفهمون ولا يقدرون الجهد الكبير الذى نبذله من أجل إسعادهم والسيطرة عليهم أقصد والمحافظة عليهم، تصوروا، لقد ثار فجأة عقب مناقشة عادية، وفوجئت به يحطم كل شئ

فى المنزل ويتهمنى بأننى قد حولت حياته لجحيم .. بكيت بحرقة وأخذت أدافع عن نفسىَ معددة أفضالى عليه. هو لا يعرف أننى رفضت الزواج ممن هم أكثر منه جاهاً وثروة وفضلته على الآخرين لطيبة قلبه وعلى أمل أن أصنع منه شيئاً ما.. ولكن ها هو ذا يظهر على حقيقته التى أخفاها عنى زمناً طويلاً، إنه رجل شرير لا يحلم إلا بالسيطرة علىّ فقط. يقول إننى لا أعامله بحب ولا حتى بود .. كيف تريد أن أعاملك يا أستاذ؟ إننى زوجة يا سيد ولست غانية .. هل تريد أن أقول لك كلمات معسولة..؟ هل تريد أن أقول لك يا حبيبى ويا روح قلبى كما يحدث فى الأفلام الهابطة .. لن أقولها لك لأننى زوجة محترمة ..ألا تفهم معنى أن تكون الزوجة محترمة محافظة على كبريائها؟ سكت حسن. ظل ساهراً بجوارى حتى الصباح يحدق فى سقف الغرفة .. لم يحاول أن يصالحنى كما كان يحدث فى كل مرة نتشاجر فيها. وفى الصباح خرج ولم يعد.

بعد عدة أيام أرسل لى ورقة الطلاق. الآن فقط عرفت خطئى الوحيد، لقد عاملته بتدليل وتفانيت فى الحفاظ عليه. كان يجب أن أبذل مجهودا أكبر للسيطرة عليه .. أليس كذلك؟ .

زوجتى والدهب

العمل في سوق المال يتطلب عقلاً بارداً وأعصاباً ثابتة، وبصيرة نافذة، وقدراً لا بأس به من الحظ الطيب. وأنا - والحمد لله - لا ينقصني العقل البارد ولاثبات الأعصاب ولا البصيرة النافذة .. فقط ينقصني الحظ الطيب، ففى الأيام القليلة الماضية، لازمنى سوء الحظ في بورصة لندن ففقدت نصف ثروتي، ولا تسألوني عن نصفها الآخر، فقد خسرته من قبل في مشروع فاشل. باختصار، أنا الآن مفلس.

ولكن الفشل في حياة رجال المال والأعمال ليس كارثة كبيرة وخاصة عندما يحدث في بداية حياتهم، أمر طبيعي جداً أن يفشل الواحد منهم مرة ومرتين أوثلاث مرات. ثم يتعلم بعد ذلك من فشله ويستفيد من أخطائه ثم يخوض مغامرة جديدة، يربح فيها وتعوضه عن كل ما خسره من قبل، عند ذلك يمتلئ بالثقة والجرأة ويشق طريقه

بثبات إلى القمة، قمة المال. هذا هو ما أفكر فيه، أن أخوض مغامرة مالية جديدة، محسوبة جيداً، بل ومضمونة. الذهب، نعم، الذهب وهل هناك غيره؟ كانت فيه النجاة على مر العصور.

سوق الذهب هذه الأيام، هو السوق الوحيد الذى لايشكل العمل فيه أى مغامرة، فالأوقية قد ارتفع سعرها من ٢٥٠ دولاراً إلى ثلاثمائة دولار فى أربعة أيام، وسيوالى ارتفاعه فى الأيام القادمة. لقد قرأت بدقة تحليلات رجال الاقتصاد فى العالم فى كل ما وصل إلى يدى من مجلات وجرائد، ووجدتهم يجمعون على أنه لا شئ فى المستقبل القريب سيوقف هذا الارتفاع. وكلمة القريب هنا تعنى على الأقل عدة شهور.

ولكن، من أين لى بالمال الذى أشترى به الذهب لأبيعه فيما بعد؟ أصدقائى أقرضونى بما فيه الكفاية، والبنوك سترفض أن تعطينى درهما واحداً بعد أن أنكشفت بشكل واضح فى السوق. ولمع الحل فى عقلى. القلادة. نعم، هذه القلادة سوف تنقذنى وتكون طريقى للنعيم، للقمة، قمة المال. هى قلادة ثمينة مرصعة بالماس والأحجار الكريمة وصلت لزوجتى عبر الزمن بالميراث عن إحدى جداتها البعيدات، وكانت زوجة لموظف كبير كان يعمل فى خدمة والى حلب أثناء الحكم العثمانى. سأودعها أى بنك فى أى عاصمة أوروبية ثم اقترض بضمانها مبلغاً كبيراً، أشترى به كمية لا بأس بها من الذهب، أبيعه بعد

أن يكون سعره قد ارتفع، عند ذلك أسدد دين البنك وأسترد القلادة لأعيدها إلى مكانها فى هدوء. وبذلك يتجمع لدى مبلغ من المال أتولى استثماره فى حرص هذه المرة، وبذلك تدور العجلة فى مجراها السليم، ستسألون، ولماذا لا تخبر زوجتك بتفاصيل ما تنوى عمله؟

زوجتى لا تحب المغامرة، ولا تتمتع بقوة الأعصاب اللازمة لمواجهة مثل تلك الأمور، سترفض. وحتى إذا وافقت تحت ضغط منى، فلابد أنها ستصاب بالرعب على مصير القلادة. لاضرورة لمفاتحتها فى الموضوع، ستختفى القلادة من مكانها فى خزانة البيت الحديدية ثم تعود إلى مكانها مرة أخرى دون أن تتنبه هى أو أى مخلوق لذلك. وإذا كان البشر يعترفون ويقدرون الأكاذيب البيضاء التى تصلح بعض المواقف ولا تضر أحداً، فلا مفر من الاعتراف بأن هناك أيضاً «أفعالا» بيضاء وبالتأكيد فعلتى هذه تنتمى لهذا النوع من الأفعال.

استقرت القلادة فى جيبى. ولكيلا أترك أى احتمال لسوء الحظ، أثبتها على إقرارى الجمركى عند دخولى لندن، وزيادة فى الحرص وضعتها فى خزانة الفندق.

وفى الصباح توجهت لبنك ذى سمعة طيبة يعرفنى مديره، وافق مدير البنك على إقراضى مائتى ألف دولار. عند ذلك أدركت أن القلادة يبلغ ثمنها على الأقل نصف مليون دولار. على الفور طلبت منهم أن يشتروا لى بالمبلغ كله ذهباً وبعد ذلك عدت للفندق وحدث ما توقعته، وارتفع سعر أوقية الذهب إلى أربعمائة دولار بعد سبعة أيام

بالضبط، ألم أقل لكم إننى شخص نافذ البصيرة؟ من المؤكد أن سعر الأوقية سيرتفع إلى ألف دولار قبل نهاية العام. وهذا ليس تقديرى وحدى، إنه تقدير كل خبراء الاقتصاد فى العالم كله كما عرفتها من متابعتى للصحافة ونشرات الأخبار فى كل الإذاعات الأجنبية. لم أسدد قرض البنك، ولماذا أسدده الآن؟ سيقلل ذلك من المبلغ الكلى للاستثمار. سأسدده بسهولة فيما بعد.

أرسلت استدعى زوجتى بعد أن أستأجرت شقة فخمة تليق بوضعى الجديد. ثم تفرغت لممارسة لعبتى الجديدة. أشترى وأبيع. أبيع وأشترى. كل ذلك يتم على الورق فقط بينما رصيدى يزداد ويرتفع بشكل فعلى وعملى.

وفجأة، وعلى عكس كل توقعات الخبراء، هبط الذهب، وقعت أسعاره من حالق. وقعت على أم رأسى، باختصار شديد خسرت كل ما أملك. حتى المبلغ الذى اقترضته فى البداية بضمان القلادة، أنا عاجز الآن عن تسديده للبنك. لقد ضاعت القلادة.

فى تلك الليلة لم أنم. أخذت أتقلب فى فراشى يكاد يسحقنى الخجل والإفلاس، وقبل الفجر بقليل قالت زوجتى:

– لابد أن تؤمن بالقدر، إنك لست مؤهلاً لمثل تلك الألاعيب المالية، وأنا لست حزينة لما حدث، أنا حزينة فقط لأنك غامرت بقلادتى دون أن تأخذ رأيى. على العموم لقد تحدثت مع أخى تليفونياً. سوف يقوم

بتحويل مبلغ فى الصباح تسدد به دين البنك وتسترد القلادة، وتدفع إيجار الشقة، وتحجز لنا على أول طائرة، والآن تستطيع أن تنام.

أنا أعمل الآن كاتب حسابات فى شركة تجارية بعد أن أدركت بنفاذ بصيرتى أننى لن أكون يوماً عضواً فى نادى رجال المال. حياتى الآن مستقرة هادئة، ومرتبى معقول يكفينى وزوجتى ويكفى أيضاً لدفع أقساط شهرية لأخيها، وهناك احتمال إذا سارت الأمور على مايرام أن أتمكن من سداد المبلغ الذى اقترضته منه بعد خمسة وعشرين عاماً، بإذن الله.

مرض الحنين إلى الوطن

ارتفع صوتها، فارتفع صوتى. فقدت أعصابها، فقدت أعصابى. دبت على الأرض بقدميها فضربت على الطاولة بيدى فانكسر لوح الزجاج الذى يغطيها، فى لحظات كنا نصرخ، سمعت جرس الباب يرن فى إلحاح ففتحت وأنا فى قمة الغضب، كانت جارتنا العجوز التى تقطن الشقة المجاورة.

قلت لها فى غيظ وبإنجليزية سوقية:

– نعم يا سيدتى .. ماذا تريدين ..؟

قالت بإنجليزية أكسفوردية: أنتما تعيشان فى بلد متحضر.. وفى البلاد المتحضرة لا تحل الناس مشاكلها بالصراخ وإزعاج الآخرين.

– ألا يتمتع الناس هنا فى كندا يا سيدتى بحرية الصراخ..؟ ألا يتمتعون بالحق فى أن تكون لهم خلافاتهم الزوجية مثل سائر مخلوقات الله.

– لست اعترض على استمتاعكما بخلافاتكما الزوجية.. إننى أعترض فقط على طريقتكما فى التعبير عنها.. منذ أن جئتما من وطنكما يا سيدى. وأنتما تحرماننا من النوم، وفى الغالب سوف يقتل أحدكما الآخر.. وإذا حدث ذلك فسوف تسببان إزعاجاً كبيراً لكل سكان الحى.. لماذا لا تحملان مشاكلكما ومتاعبكما وتذهبان لمكتب حل الخلافات الزوجية. هذا المكتب يعمل ليل نهار، والمسئولون فيه خبراء فى كل أنواع المشاكل الزوجية، المادية منها والنفسية، المختفية والملموسة.

– نحن قادرون يا سيدتى على حل مشاكلنا.

– غير صحيح .. بدليل تلك الدماء التى تسيل من أصابعك الآن.. استمعا إلى نصيحتى وارتديا ملابسكما الآن وتوجها لمكتب حل الخلافات الزوجية.. هذا هو العنوان ورقم التليفون.. أتفضل.

منذ وصلنا إلى كندا ونحن نتشاجر لأتفه الأسباب، وليس بعيداً كما قالت السيدة أن يقتل أحدنا الآخر. لماذا لا نجرب هذا المكتب؟ .. على الأقل لكيلا أندم فيما بعد على أى قرار اتخذه.. وافقت زوجتى على الفكرة لسبب وحيد أن تثبت أمام الآخرين أننى المخطئ على طول الخط. اتصلت بالمكتب تليفونيا فحددوا لنا موعداً بعد ساعة.

فى قاعة الانتظار الفخمة الواسعة وجدت مجموعة كبيرة من الأزواج والزوجات من مختلف الأعمار وكل منهم يتحاشى النظر فى وجه الآخر. سحابة ثقيلة من التعاسة والغضب كان تشيع فى القاعة.

حتى هؤلاء الذين كانوا يخرجون من مكتب الباحثة الاجتماعية بعد الانتهاء من بحث حالتهم كانوا ينظرون إلى الأرض أو ينظرون إلى لا شئ وهم يخرجون فى خطوات بطيئة وقد حاولوا قدر استطاعتهم أن يرسموا على وجوههم ابتسامة زائفة.

أخيراً جاء الدور علينا. أدخلتنا موظفة شابة إلى مكتب الباحثة التى ستكون مسئولة عن حل مشاكلنا الزوجية. (تمكنت بالفعل فيما بعد من حل كل مشاكلنا) كانت فى حوالى الثلاثين من عمرها، ترتدى ثياباً بسيطة وتضع مكياجاً خفيفاً. وكانت غرفتها مؤثثة بشكل يوحى بالراحة والهدوء. قامت من خلف مكتبها مرحبة بنا ثم جلست فى ركن الغرفة بعيداً عن المكتب.

قالت بالفرنسية: هل تفضلان الحديث بالفرنسية أم بالإنجليزية؟

قالت زوجتى هامسة بالعربية: طبعاً حاتتكلم بالإنجليزى.. ربنا يستر على الإنجليزى بتاعك المنيل بستين نيلة.

رددت عليها هامساً: طبعاً تتكلمين الإنجليزية أفضل منى.. لأن أبوكى لورد.

نظرت الباحثة لنا فى دهشة.. من الواضح أنها لم تفهم حرفاً واحداً مما نقول، ولكنها فهمت بالطبع أن كلانا كان يشتم الآخر.. فلغة الشتيمة مثل لغة العيون، عالمية.

بدأت أتكلم وزوجتى تقاطعنى فى غلظة، وبعد أن انتهيت من شرح متاعبى معها، جاء الدور عليها فى أن تحكى متاعبها وجاء الدور على أيضاً لكى أقاطعها تقريباً بالغلظة نفسها. كان كل ما تقوله يفتقر إلى الصدق والإنصاف.

فى النهاية سألتنا الباحثة: هل يود أحدكما أن يضيف شيئاً؟

هززنا رأسينا نفياً. بالطبع كان هناك ما يود كل منا أن يضيفه، ولكن التعب والخجل أيضاً كانا قد استوليا علينا. عند ذلك قالت الباحثة: أعتقد أنه من الأوفق أن أتحدث معكما باللغة العربية.. فلم أنسها بعد.

أتضح أنها (بلديات)، هاجرت مع زوجها الذى توفى بعد وصولهما لكندا بقليل فتفرغت للعمل وتربية ابنها الوحيد. كانت حاصلة على درجة الدكتوراه فى التحليل النفسى. أخيراً تكلمت الدكتورة سناء: كل منكما يحب الآخر بعنف. ولكن الحب وحده لا يكفى لحماية الزواج. لابد من الفهم، أنتما تعانيان من الحنين المرضى للوطن، هذا الحنين يشعركما بالتعاسة، التى بدورها تتحول لمتفجرات دائمة.. وإذا لم تقاوما هذا المرض فستنتهى حياتكما بالدمار. عليكما بتحويل طاقة الحنين المرضى إلى الوطن إلى طاقة حب.. لا تبحثا عن ولا تفكرا فى الوطن البعيد، الوطن يرقد تحت جلودنا.. ليتحول كل منكما لوطن للآخر.

كانت كلماتها جميلة مثلها تماماً، حاولت المستحيل من أجل إنقاذ زواجنا. زارتنا عدة زيارات ومعها طفلها. وكثيراً ما كانت تختلى

بزوجتى فى المطبخ تشرح لها فى همس ما يجب عليها أن تفعله لكيلا ينهد البيت فوق رأسينا. كما كانت تواجهنى بأخطائى بصراحة وبساطة وبغير عدوان. ومع ذلك وبالرغم من كل المجهود الذى بذلته، جاءت اللحظة التى طلبت فيها زوجتى الطلاق وأصرّت عليه. فشلت فى إثنائها عن عزمها، كما فشلت سناء. عدة مجموعات من خبراء الحياة الزوجية وعلماء التحليل النفسى لم يفلحوا فى إنقاذ حياتنا الزوجية، وأخيراً نصحنا الجميع بالطلاق.

وغادرت زوجتى كندا بعد أن أكتسبت صفة جديدة، مطلقتى.

وتزوجت سناء.

لا أقول إنها أفضل من زوجتى السابقة بكثير، فالنساء بوجه عام متشابهات. ولكنها مختلفة قليلاً عنها، فهى تسبب لى الضيق أحياناً كأى زوجة. ولكنها فى أحيان أخرى تطير بى فوق سحاب النعيم. بالطبع تحدث بيننا خلافات كثيرة، ولقد حاولت ذات مرة أن أستنجد بمكتب حل الخلافات الزوجية إلا أنها انتزعت منى سماعة التليفون ووضعتها بعنف صارخة فى وجهى: هل تصدق هذه الخزعبلات ..؟ لا أحد على ظهر الأرض قادر على حل مشاكل الآخرين.

قلت لها مصعوقاً: ولكنك ساعدتينا.

ساعدتكما على الطلاق، لقد أدركت منذ اللحظة الأولى أن الأنفصال بينكما أمر حتمى، ولو لم أدخل حياتكما ما كان من الممكن أن تستمر،

لقد تعبت كثيراً فى انتظار سقوط الثمرة... (التى هى أنا؟ !!) هل هى صدفة أن تتزوج كل موظفات المكتب من رجال كانوا زبائن عندهن؟.. لقد التحقنا جميعاً يا زوجى العزيز بهذا المكتب من أجل فرصة أوسع فى الأختيار.

منذ تلك اللحظة لم تسمح سناء لمخلوق بالتدخل فى حياتنا الزوجية بالسلب أو بالإيجاب. وتحول كل منا بالفعل فى تلك الغربة الموحشة إلى وطن للآخر، يحبه، ويرعاه، ويّخلص له، ويكرهه أحياناً دون أن يفقد الإيمان بقدسيته.

حسنية

أننى على أستعداد تام لأن أوقع بأسمى على هذا الأعتراف، ومستعد أيضاً أن أكتب عنوانى ورقم هويتى الشخصية.

فلم أفعل ما يشعرنى بالعار أو الخجل. بل فعلت ما كان يجب على أن أفعله كآدمى وكرجل. العار الوحيد كان ألا أفعل ما فعلت.

نعم. طلقت زوجتى سميرة أبنة الأكابر وأبنة الحسب والنسب وتزوجت من حسنية مطلقة عم عبده الذى كان يعمل عندى حارساً للفيلا وبواباً وحدائقياً.

ولكن قبل أن تذهب بكم الظنون كل مذهب، أسمعوا حكايتى واحكموا.. وليكن حكمكم ما يكون، فالمهم هو حكمى على نفسى. إن ضميرى مرتاح تماماً لما حدث، بل أنا فخور بقدرتى على اتخاذ هذا القرار.

زوجتى سميرة، أنجبت لى طفلاً فكدت أطير من الفرحة. وتجسدت دنياى كلها فى هذا الطفل. ولكنها فشلت فى إرضاعه رضاعة طبيعة. أقول فشلت، ولكن الحقيقة كانت غير ذلك. لقد تعمدت أن تفشل، فقد كانت تؤمن فى أعمق أعماقها أن الرضاعة الطبيعية ستضر بشكلها العام وبرشاقتها التى تحافظ عليها بكل الطرق، ومن بين هذه الطرق، أن تمتنع تقريباً عن الأكل، أو تكتفى فى كل وجبة بعدة لقيمات تأكلها فى فتور وحذر وضيق. الأمر الذى يدفع من يتناول طعامه معها إلى كراهية الدنيا. إن الطعام يفقد قيمته على الفور عندما تجد زميلك على المائدة يأكل بتأفف وبلا حماسة وكأنه يقوم بواجب ثقيل على نفسه.

بدأت أعرف كل أنواع اللبن الصناعى وخصائص كل نوع منها.

هذا النوع صالح للتناول شتاء.. وهذا فى الصيف.. وذلك فى الربيع.. إذا ارتفعت درجة حرارته فلا تعطه هذين النوعين.. بل اعطه نوعاً ثالثاً.. هذا هو اسمه.. أبحث عنه فوراً فى الصيدليات.. لا تعطه نوعاً غيره، فقد يسبب له إسهالاً خطيراً.

ذات ليلة بحثت فى كل الصيدليات عن نوع وصفه الطبيب فلم أجده، كلمت كل معارفى، اتصلت بالهيئة العامة التى تقوم باستيراد الأدوية، ولكنى فشلت فى الحصول على علبة واحدة. فعدت إلى البيت وأنا أكاد أموت من الغضب والغيظ. وجدت ابنى يصرخ من الجوع صراخاً أيقظ كل سكان الحى... شعرت أننى على وشك الجنون.

كان لحسنية زوجة عم عبده طفل فى مثل عمر طفلى تقريباً، وبالتأكيد هى ترضعه رضاعة طبيعية، كما أنها لم تذهب به للطبيب من قبل. طلبت من زوجتى أن تستدعى حسنية، لترضع الطفل. فرفضت حرصاً على مكانتنا الاجتماعية، ماذا يقول الناس عنا عندما يتسرب الخبر.. بل ماذا يكون تأثير ذلك على ابننا عندما يكبر؟...

بلا كلمة واحدة حملت الطفل وخرجت من الفيلا وسرت به فى الحديقة إلى أن وصلت لغرفة عم عبده، كانت حسنية نائمة، طلبت منه أن يوقظها وأن يعطيها الطفل لترضعه، جلست فى الحديقة إلى أن انتهت من إرضاعه .. قالت لى: كان جائعاً جداً يا كبدى.

في تلك الليلة نام طفلى نوماً هادئاً وقد علت وجهه علامات الارتياح الناتجة عن الشبع.

منذ تلك اللحظة ارتبط طفلى بحسنية، وأخذت أنا آهتم بتغذية حسنية وعم عبده بالطبع .. أخذت أرسل لهما بكميات هائلة من اللحوم والدواجن والسمك والبيض والجبن والفاكهة، ولكنى لاحظت أن هذه الكميات كانت تنتهى بسرعة غير مناسبة، كما أن حسنية كانت تعطى الجزء الاكبر لزوجها الذى كان قادراً على آكل جمل بأكمله فى وجبة واحدة... لم يكتف عم عبده بذلك، بل آخذ يدعو بعض أصدقائه وأقاربه لولائم ليريهم كم هو كريم وكيف أن غرفته الصغيرة حافلة بكل تلك الخيرات.

لم يكن هناك مفر من أن أستدعى حسنية لتتناول طعام الإفطار والغداء والعشاء معنا.. أو معى بمعنى أدق لأن زوجتى لم تكن تشاركنا الطعام.. فعلت ذلك لكى أتأكد أن المحصلة النهائية لتلك الحملات الغذائية ستتحول لحليب يغذى ابنى ويبعث القوة فى أوصاله.

كانت حسنية تتناول الطعام بشهية بالغة وبطريقة تشعرك أن الدنيا بخير وأن الحياة جميلة. ومع ذلك لم يكن وزنها يزداد أويصاب جسمها بالترهل ، كانت رشيقة وقوية بفعل ذلك المجهود الذى تبذله فى العناية بالحديقة والفيللا.

انكشف عم عبد أمام أصدقائه وأقاربه الذين كانوا يهبطون عليه فى موعد العشاء فلا يقدم لهم شيئاً مما اعتادوه من قبل. فاستاء من مشاوير زوجته الغذائية وأخذ يبرطم بكلام غير مفهوم.. لست أعرف بالضبط ماذا صور له خياله.

أما زوجتى، فقد كان الاستياء واضحاً عليها وذلك من الغلظة التى كانت تعامل بها حسنية. وذات ليلة خرجت زوجتى من غرفتها فوجدتنا نتناول عشاءنا معاً فانفجرت فينا.. ألا تخجل من نفسك يا رجل؟ .. ما هذا الذى تفعله؟.. ذوقى يا حسنية قطعة اللحم هذه أسمها «اسكلوب» يا حسنية.. أما تلك فهى بفتيك.. جربيها.. الله طعمة.. أليس كذلك..؟ نعم .. تسلم أيدك يا سيدى.. بالهنا والشفا يا حسنية.. الله يهنيك يا سيدى.. أستحلفك بالله أن تأكلى هذه السمكة يا حسنية.. شبعت يا

سيدى.. أرجوكى.. كلى هذا الفص.. عشان خاطرى.. هل أقشر لك تفاحة أخرى.

جاء عم عبده على صرخات زوجتى، وبدأت الجيران تتابع ما يحدث من البلكونات والشبابيك.. انهالت بالشتائم والإهانات على عم عبده مذكرة أياه بأن الرجولة لاتتفق والسماح لزوجته بأن تأكل بعيداً عنه.

فسحب زوجته إلى غرفته وبعد لحظات ارتفع صراخها، كان يضربها، أنقذتها بصعوبة من بين يديه، فالقى عليها يمين الطلاق.

كلاهما ترك الفيللا..

ذهبت زوجتى إلى بيت أهلها، وذهب عم عبده إلى حيث ألقت. وبكت حسنية فى حرقة وتعاسة وضياع. فكدت أصاب بالجنون. هذا الحزن وتلك التعاسة سيتحولان لسم قاتل زعاف يدخل جوف طفلى. لا يجب أن تتعرض المرضعة لانفعالات سيئة، ولذلك أخذت ألاطفها وأهدئها.. ثم نزلت إلى السوق واشتريت لها ملابس جديدة وتركت لها الفيللا وأقمت عند والدتى.

كنت آتى للفيللا ساعتين فقط يومياً، ألاطف طفلى الذى بدا ينمو بشكل يدعو للإعجاب. خلال خمسة شهور، أكتشفت أن حسنية مخلوق جاد، وظريفة وذكية وبنت حلال، وتحب طفلى وتعامله كطفلها،

المعاملة الطيبة والمناخ المريح اكسبتها جمالاً واكسبت عينيها بريقاً محبباً.

الشئ الغريب أننى بدأت أحب طفلها كطفلى.. أكثر من ذلك لقد بدأت أحب عملى أكثر بل وأحب الحياة أكثر وأكثر بعد أن تزوجت حسنية.

شئ أخير أقوله لكم لكى تغتاظوا جميعاً ويفرى الحقد أكبادكم..

حسنية أنثى أيضاً. ربنا يخليكى لى يا حسنية.

مهمة الزوجة

الشغالون يقومون بتنظيف البيت وترتيبه وشراء ما يلزم من السوق، السائق يقوم بتوصيل الأولاد من وإلى المدرسة، الطاهى يقوم باختيار أنواع الطعام الذى نأكله، المدرسون يأتون إلى المنزل واحداً بعد الآخر لإعطاء الأولاد الدروس الخصوصية، وأنا أدور فى طاحونة العمل مثل الثور.

ماذا تفعل هى إذن؟

أقول لك:

تذهب إلى النادى ثم تعود من النادى.

تذهب لزيارة صديقاتها ثم تعود بعد انتهاء زياراتها لصديقاتها. لا تحمل هماً من أى نوع. دائماً متوردة تكاد الصحة تتفجر من عينيها ومن لون بشرتها بينما أتحول أنا شيئاً فشيئاً لكهل عجوز. فى إحدى

المرات سألتها فى ثورة غضب. هل من الممكن أن أفهم ما هى مهمتك بالضبط؟

ردت على ببرود يثير الاعصاب: أن أكون زوجتك.

– أعلم أنك زوجتى.. ولكن ماذا يعنى ذلك؟

ازدادت شحنة البرودة فى صوتها وهى تقول: يعنى أن أكون زوجة لك.. وهو معنى كبير أفهمه جيداً.

– ولكنى أريد أن أفهمه أنا أيضاً.

– كنت أعتقد أنك تفهمه.

– لا يا سيدتى، لست أفهمه.

انتهت الخناقة على خير، كما تنتهى عادة كل خناقات الأزواج والزوجات.. حدث بعد ذلك أن جاء ذلك اليوم الأسود المشئوم الذى أدمنت فيه «الشم». كنت أقضى السهرة مع رجال الأعمال الذين تعرفت عليهم حديثاً، قال لى أحدهم إننى لست فى حالة مزاجية عالية، ثم عرض على أن أجرب شمة من ذلك المسحوق الأبيض اللعين. قال إننى سأكتشف مناطق ممتعة من الحياة لم أعرفها من قبل. عندما حدثته عن أخطاره وأضراره، ضحك باستخفاف وقال: هل تصدق كلام الجرائد؟ كل ما هو نبات لا خطر منه بالمرة، إننى أتناول هذا المسحوق عندما أريد وأتوقف عنه عندما أريد، ولا تحدث لى تلك

المضاعفات والآلام التى يحكون عنها.. وعلى العموم جرب.. جرب ولو مرة واحدة.

وجربت، ولكنها لم تكن لمرة واحدة، فقد أعقبتها عدة مرات .. ثم عشرات المرات..

دخلت دائرة الإدمان بأسرع مما أتصور. كان من المستحيل أن أستمر فى عملى أو حتى أتمالك قواى إلا بعد الحصول على الشمة.

استهلكت كل مدخراتى، ثم اضطررت بعد ذلك لبيع أصول شركتى، ولكنى كنت حريصاً دائماً على ألا تشعر زوجتى بشئ ما يحدث لى. غير أنها بدأت تتنبه إلى أن هناك أمراً غير عادى يجرى فى حياتى عندما لاحظت التباين الشديد فى حالاتى النفسية والعصبية، فأحياناً أكون سوداوى المزاج، غير قادر على الحركة، وفى أحيان أخرى أكون متمالكاً لقواى وفى حالة مزاجية متألقة، الأمر الذى لا يحدث إلا بعد حصولى على «الشمة» التى مالبثت أن أصبحت عدة «شمات» فى اليوم الواحد.

لو أن «قارون» نفسه أدمن الشم لفقد كل أمواله فى شهور، هذا ما حدث معى، فقدت كل شئ.. حتى الفيللا التى نسكنها. بعتها بكل ما تحوى من أثاث. كانت زوجتى فى منزل أهلها ومعها الأولاد بعد أن أفتعلت معها خناقة طردتها على إثرها هى والأولاد، وخرجت هى فى كبرياء دون أن تتفوه بحرف واحد.

بعد عشرة أيام من انتقالى إلى الغرفة التى استأجرتها فوق سطح إحدى العمارات، فوجئت بها تطرق على الباب، عندما شاهدتها، انفجرت باكيا، لم أكن اعتقد أننى سأراها للأبد، كنت خجلاً منها.

جلست هى صامتة إلى إن تمالكت نفسى وأخيراً تكلمت: أنت لم تطلقنى بعد، وأنا لم آت لأطلب الطلاق.. فأنت فى محنة وأنا أدرك ذلك.. لقد جئت لكى أسألك بوصفى زوجتك، هل هناك ما أستطيع أن أفعله من أجلك؟

لم أرد عليها، وظللت صامتاً، فقد بحثت عن إجابة فلم أجد. كانت راقية إلى الحد الذى سحقنى سحقاً.

مرة أخرى جاءنى صوتها، إننى أستطيع أن أفعل الكثير من أجلك بشرط أن توافق وأن تتحمس لما سأعرضه عليك، أنت الآن وصلت إلى نقطة الصفر، بل إلى ما دون ذلك، ولكنك تستطيع الصعود مرة أخرى.

من خلال دموعى تساءلت فى تعاسة: كيف؟ .. كيف؟ .. لا أمل، لا أستطيع الابتعاد عن هذا المسحوق. جربت مرة أن أمتنع عن الشم، أحسست بآلام، الموت أرحم منها ووجدتنى أجرى فى الشارع كالمجنون باحثاً عن جرعة.

- ولكنك تريد بالفعل الاقلاع عن ذلك؟

- نعم أريد .. أقسم أننى أريد ..

- هل تسمح لى أن أمنعك بكل الطرق.

- نعم، أسمح لك .. بل أرجوك.. أتوسل إليك .. أمنعينى بكل الطرق.

- حسناً، دع الباقى لى.

غابت ساعة ثم عادت ومعها حقيبة ملابسها وكمية من اللحم والخضراوات والعصائر.

سألتنى برقة: ماذا سيحدث عندما يأتى موعد الجرعة؟

- أتحـــول لمجنون، ثور هائج، قـــد أحطم كل مـــا ومن يقف فى طريقى.

ضحكت وقالت: سوف أمنعك أنا..

قلت لها فى إشفاق: أن المدمن فى مثل تلك الأحوال على استعدادا لتحطيم الجدران.

قالت: ولكنى لست جدراناً. أنا أقوى منها.

مرت الساعات حتى جاء موعد الجرعة، بدأت الآلام تنخر فى عظامى قلت لها: لا فائدة، لقد بدأت موجة الآلام، لا يمكن الإقلاع عن الإدمان إلا بالعلاج داخل مصح.. بعد إذنك، سوف أخرج الآن.

قالت بصرامة: لن تخرج، إذا استطعت التغلب على موجة الآلام، فسوف تنجح.

لم أعبأ بما قالته، سرت فى اتجاه الباب، سبقتنى إليه أغلقته بالمفتاح من الداخل ثم ألقت بالمفتاح من النافذة، قررت أن أحطم قفل الباب لكى أخرج. أمسكت بى من أصابعى ولوتها إلى الخلف بعنف فوجدت بنفسى ملقى على الأرض. قمت من مكانى وقد ركبت الشياطين

رأسى، وجهت لها لكمة هائلة، تفادتها برشاقة ثم ضربتني بحد كفها على عنقى ضربة صاعقة فأوقعتني على الأرض مرة أخرى.

قمت وأنا أترنح وهجمت عليها، قفزت من على الأرض وبسرعة خاطفة عالجتني برفسه من قدمها فى صدرى شعرت بعدها أن رئتى تمزقت.

واستمرت المعركة بيننا، أخذت أقذفها بكل ما تصل إليه يدى، حاولت أن أصل إليها، أه لو وصلت إليها، إذن لمزقتها إرباً، ولكنها كانت تتحرك بخفة الفهد ثم تكيل لي ضربات سريعة بحد كفها وبقدميها، لقد أثمرت أخيراً فترة تدريبها فى النادى على الجودو والكاراتيه.

خارت قواى، لم أعد أرى شيئاً أمامى، أفاقتنى بكوب من عصير البرتقال. عندما خطوت مرة أخرى تجاه الباب منعتنى بضرباتها المعجزة. وفى النهاية انهرت على الأرض عاجزاً عن الحركة.

زحفت على الأرض أقبل قدميها: أرجوك.. اسمحى لى هذه المرة فقط.. سأموت.. المدمن يموت إذا لم يحصل على الجرعة.

قالت ببرود: وهل تعتقد أنك حى.. أنت ميت فعلاً.. لقد قررت أن أعيدك إلى الحياة.. أو أوصلك إلى المقبرة.. مت الآن مطمئناً، لقد اتفقت مع الحانوتى قبل أن آتى إليك.

آلام لا تحتمل، وقئ وإسهال ثم توسلات وصراخ ودموع، ولكنها كانت مثل الصخرة الصماء، لا قلب لها ولا مشاعر.. انتابتنى رعشة

وحمى شديدة استمرت خمسة أيام تصورت خلالها أنني قد انتقلت للجحيم.. عندما أفقت، كنت قد تخلصت من الإدمان. ومن جديد بدأت رحلة الصعود.

ذات مساء قالت لي زوجتي: هل وجدت الآن الإجابة لسؤالك القديم.. عن مهمة الزوجة؟

أجبتها: نعم.. هناك آثار في جسمي لن تنمحي، ستذكرني للأبد بمافعلته من أجلي.

المكواه

هل تصدقون أن رجلاً على وجه الأرض، يكره كل إنجازات العلم المعاصرة من مخترعات حديثة تسهل على البشر كل أمور الحياة؟

أنا هو ذلك الرجل.

نعم، فأنا أكره كل المخترعات الحديثة التى اخترعت من أجل راحة الإنسان، بل وأحلم بالعودة لتلك الأيام الجميلة التى كان الإنسان الأول ينام فيها أمناً فى كهفه المريح فى أعماق الغابة. لا يزعجه أزيز أجهزة التكييف، ولايتبهدل عند الميكانيكى ولا يتعرض لعمليات القرصنة المنظمة التى يشنها عليه عمال صيانة الغسالات والثلاجات والفيديو والتليفزيون.

لقد ظهرت فى الأسواق مكواة صغيرة، أحدث إنتاج للتكنولوجيا المعاصرة، لا داعى لأن تنثر ذرات الماء على الملابس تمهيداً لكيها،

فهذه المكواة مزودة بخزان داخلى تضع فيه الماء، عند ذلك يسخن بفعل الكهرباء إلى درجة الغليان، وعند ذلك يتولى عقل اليكترونى صغير دفعه إلى الخارج من خلال فتحات صغيرة متناثرة على سطح المكواة.

كان الإعلان عن المكواة فى التليفزيون يكاد يذهل العقول، فقد كانت تخرج منها سحابة من البخار تعانق الملابس وقد أمسكت بها يد «مكوجية» حسناء ذات ابتسامة لا تقاوم.

اشترينا المكواة. ولأن كل اختراع جديد يوجد معه كتيب بكل اللغات الحية والميتة يشرح لك طريقة الاستخدام ويحذرك من مغبة سوء الاستعمال، لذلك فقد أخذت زوجتى تقرأ بإمعان هذا الكتيب.

اكتشفت أنه مرفق به ورقة معالجة كيميائياً تشبه ورقة عباد الشمس التى كنا نميز بها الحامض من القلوى فى حصص الكيمياء فى مرحلة الدراسة الثانوية.

اتضح أن هذه المكواة الفاضلة لا تتحمل أى نوع من أنواع المياه. وأن زيادة نسبة الشوائب والأملاح فى الماء، تفسد أجزاءها الدقيقة المرفهة. وأنه لابد - ضماناً لسلامة الاستعمال - من الكشف على المياه بواسطة هذه الورقة المرفقة.

كشفت زوجتى على مياه الصنبور التى نشرب منها، والتى يشرب منها أجدادنا منذ آلاف السنين، فاكتشفت أن نسبة الملوحة والشوائب العالقة بها، كبيرة بحيث لا تصلح لأن تتغذى بها المكواه.

أجسامنا المسكينة تتحمل هذه المياه بكل شوائبها بينما هذه المكواه الأرستقراطية، ابنة تكنولوجيا الغرب المهذبة، لا تتحملها، بل قد تصيب بالتلف أجزاءها الدقيقة المدللة.

- والحل ..؟ هل اشترى لها مياها مقطرة من الاجزاخانة؟ .. بحيث يكلفنى كى القميص مبلغاً يعادل ثمن القميص نفسه؟.. أم أسقيها مياهاً معدنية بينما أشرب أنا من النيل مباشرة؟.

- لا .. نشترى (فلتر) لتنقية المياه، يوضع على الصنبور..

واشتريت (الفلتر)، وركبته على الصنبور، وشربت المكواة هنيئاً مريئاً، وانبسطت وبدأت تكوى، وبدأ أفراد الأسرة أيضاً يشربون مياهاً نقية لا طعم لها وكأنها الهواء.

بعد مرور عدة أيام حدث شئ غريب، بدأنا جميعاً نشكو من آلام وتقلصات فى المعدة مجهولة السبب والمصدر.. قرر طبيب الأسرة بعد كل التحليلات التى أجريت فى أحدث المعامل الطبية وبعد الحصول على صور أشعة متعددة، استخدمت فيها أشعة الليزر والمحاليل الذرية الملونة، قرر الطبيب أن المسئول عن هذه الآلام هو تغيير نوعية مياه الشرب التى تعودت عليها أجسامنا لسنوات طويلة.

لابد من نسبة معينة من الأجسام الغريبة، والشوائب. عندما تدخل المعدة، يستخدم الجسم كل قواه لمقاومتها، وفى غياب هذه الأجسام

(الضارة)، يفقد الجسم الرغبة فى المقاومة ويصبح ضعيفاً، فلا يتحمل مقاومة أضعف الميكروبات وأقلها شأناً.

عدنا للشرب من مياه الصنبور العادية، فاختفت الآلام على الفور. وخصصنا الفلتر، لتنقية المياه الخاصة بالمكواة فقط.

أصيب الفلتر بعطب، لم يتحمل المسكين كمية العمل المفروضة عليه. فقد كانت كمية الشوائب والطحالب أكبر من أن تتحملها أجزاؤه الدقيقة.

فككته وذهبت إلى توكيل الشركة الخاصة به، نظر المهندس الألمانى إلى أجزائه ثم قال باستنكار شديد: ماذا فعلتم به؟ هل تستخدمونه فى تنقية شوربة العدس؟ .. لم يحدث من قبل أن كسرت هذه الأجزاء الداخلية.. أنتم فى حاجة لمحطة تحلية مياه تعمل بالطاقة الذرية.. على كل حال سوف أطلب لك قطع الغيار المطلوبة من المصنع، على أن تتحمل مصاريف المراسلات بالتلكس.

ارتفع سعر الدولار إلى الضعف مما ترتب عليه أن قطعة الغيار المطلوبة كلفتنى ضعف ثمن الفلتر نفسه. ولكن للأسف، بعد أن ركبنا قطع الغيار المطلوبة، توقف الفلتر بعد أسبوعين.

– ماذا نفعل؟

عدنا لقراءة الكتيب مرة أخرى، اتضح أن هناك حلا يشبه الحلول الدبلوماسية، لا غالب ولا مغلوب.

من الممكن أن تعمل المكواة مثل بقية مكاوى البشر التقليدية، بدون مياه تخرج من جوفها، يعنى ترش المياه على الملابس من إناء منفصل ثم تستخدمها بشكل تقليدى.

ولكن .. ولكن ما فائدة الثقوب والتكنولوجيا المعاصرة إذن؟.. اليس فيما نفعله إنكار وأهدار لجهد العبقرى الذى أخترع المكواة؟ أليس فيما نفعله تجاهل شرير لإنجازات العلم.؟

هذا ما كانت تلح على به زوجتى كل يوم. ثم أخذت تحثنى أن أفعل شيئاً ولا أستسلم للهزيمة بسهولة. لابد من الحصول على مياه نقية تصلح للمكواة.

لذلك قررت أن أخوض معركتى على كل المستويات. أتصلت بكل من أعرفهم فى مستويات السلطة المتعددة، أتصلت بمسئول مرفق المياه، كلمت قادة الأحزاب المعارضة، أرسلت خطاباً لكل أبواب بريد القراء فى كل الصحف والمجلات.. بالطبع لم أذكر لهم حكاية المكواة.

ومازلت أواصل معركتى.

فلست منعدم الضمير إلى الدرجة التى أترك فيها هذه المكواة الأنيقة تموت عطشاً.

زوجتى والشعر

أعمل وكيلا أول فى وزارة هامة فى عاصمة عربية هامة أيضاً. ولكن ما اعتز به حقاً، هو أننى شاعر، بل وأزعم أننى شاعر فحل مجيد بالرغم من أن ديوانى الأخير الذى يحوى أرق وأجمل قصائدى، قد وزع عشرين نسخة فقط.

نعم، عشرون قارئاً فقط من المحيط إلى الخليج هم الذين أشتروا ديوانى، مع إنى أرسلت عشرات النسخ من هذا الديوان إلى كل نقاد الأدب والمهتمين بالشعر، وكل مسئولى الصفحات الأدبية فى الجرائد والمجلات إلا أن الجميع قد التزموا الصمت.

شعرت بحزن عميق أسلمنى لحالة من الاكتئاب فبت أرى كل ما حولى أسود قاتماً. زوجتى أيضاً استولت عليها حالة من النكد، مالبثت أن تحولت لانفجار. فجأة دخلت على غرفة مكتبى بينما أنا جالس غارق فى أحزانى. صاحت فى وجهى: أنت المخطئ فيما حدث، ليس

مهما أن تكون فناناً مبدعاً، الأكثر أهمية أن تكون لديك القدرة على تسويق إبداعك.. الإبداع أيضاً يعتبر سلعة.. مثله مثل الموبيليا، والأحذية، والسيارات، والثلاجات.

صرخت فيها: ماذا تريدين منى؟ أن أحمل ديوانى على كتفى وأمشى به فى الشوارع.. وأنادى عليه وأقول. الشعر الحلو.. الشعر الجميل.. الشعر العظيم، أفهمينى، أنا شاعر فنان مبدع ولست بقالا ألم تقرئى الدراسة التى كتبها عنى المستشرق الأسبانى، خابيتى.. خابيتى؟

سكتت. ثم خرجت من الغرفة غاضبة.

المشكلة أن دراستها كانت فى إدارة الأعمال. وحصلت على الماجستير فى التسويق، لذلك فهى تؤمن أن أهم عنصر فى الإنتاج البشرى هو: التسويق. وهذا صحيح إلى أبعد الحدود فيما يتعلق بالسلع الاستهلاكية والمعمرة أو أى نشاط تجارى. ولكن الفن؟ الشعر؟ لا يمكن.

على الشاعر أن يبدع ثم يقدم إنتاجه فى ترفع. عليه ألا يستجدى أحداً لترويج إبداعه. قبل الفجر بقليل خرجت من غرفة مكتبى فوجدتها ساهرة فى غرفة الصالون منهمكة فى الكتابة وقد أحمرت عيناها من السهر.

– سألتها، ماذا تكتبين؟

– اكتب عدة قصائد شعرية، انتهيت من كتابة عشر قصائد، آمل أن أتمكن من الانتهاء من ديوانى الأول قبل شروق الشمس.

لم أعرف من قبل أن لها أهتمامات شعرية، ولذلك طلبت منها أن تقرأ لى بعض الأبيات فبدأت تقرأ.. غسلت فؤادى، وغسلت قلبى.

وسأنتظر حتى يجفا..

لكى أحبك من جديد.

فلدى من الحب المزيد.

ستجدنى بانتظارك، بقلب غسلته الأحزان.

وأعين غسلتها الدموع.

يا أقسى من صخرة.. وأعتى من إنسان.

اكتفيت بهذا القدر من عبث الأطفال الشعرى وقلت لها تصبحين على خير، ونمت حزيناً، فقد ظهر للوجود شاعر آخر ليس له صلة بالشعر، يالوجع قلبى.

بعدها بيومين، طلبت منى ألا ارتبط بمواعيد يوم الخميس، حيث ستزورنا بعض الشخصيات الهامة لتناول العشاء عندنا، وأصرت على ألا تكشف لى عن شخصياتهم وأسمائهم باعتبار أنها تدخر لى مفاجأة.

كانت المفاجأة أكثر من مذهلة، فوجئت بعشرة نقاد على الأقل وخمسة من محررى الأبواب الأدبية والفنية وقد أتوا لتناول العشاء على مائدتنا، التى كانت طوال عمرها متواضعة.. ولكنها الليلة لم تكن كذلك. فقد رصت عليها مجموعة من صوانى وطواجن السمك والجمبرى وقواقع البحر، من ذلك النوع الذى لا تراه إلا وأنت تشاهد

برنامج عالم البحار فى التليفزيون.. بالإضافة لأطباق الأرز المرصعة بالاستاكوزا والكابوريا المخلية. ثم أنواع غريبة من السلطات والمخللات والمقليات. فوجئت أيضاً بوجود أربعة سفرجية يرتدون زياً أخضر مزركشاً وقد ركبت على وجوههم ابتسامة ترحيب أسرة. يقومون بخدمة الضيوف فى لطف ورقة بينما زوجتى توجههم فى ألفة وكأنهم يعملون لدينا منذ عشرين عاماً.

انتهى العشاء، وبدأت طوابير الفاكهة ثم استعراض أطباق الحلو. ثم انتقلنا لغرفة الصالون. فجاء دور السيجار الفاخر والقهوة «المحوجة».. ثم رائحة بخور جميلة آتية من مكان ما، ثم موسيقى هادئة جميلة.

كانت الجلسة أشبه بجلسات تحضير الأرواح.

وفى لحظة مناسبة، وبعد أن تأكدت زوجتى أن أبخرة السمك والجمبرى قد تصاعدت من بطون الجميع إلى أدمغتهم فخدرتها، بدأت تلقى بقصائدها.

اتضح أنها تكتب الشعر منذ نعومة أظفارها، وأنها قررت الآن فقط أن تخرج للنور. وبدأت التعليقات وصيحات الاستحسان، الله... الله... عيدى البيت الأخير... يا سلام.. حرام عليك حبس هذه الموهبة طوال هذه السنين.. الله.. ماشاء الله.. من يصدق أن هذه الموهبة كانت موجودة بيننا ونحن لا ندرى.

المؤلم أنه ولا واحد فيهم كان قد سمع بأسمى من قبل، ما عدا واحدا تذكر أننى قد أرسلت له ديوانى الذى لم يقرأه، قال لى مجاملاً وهو يضحك: طبعاً.. زوجة الوز عوام.

لم أضحك لنكتته السخيفة، فالأصل فى المثل هو ابن الوز عوام، وليس زوجة الوز، بالإضافة إلى إننى لا أرى وجه تشابه بين الوز والشعر.

سألتها بعد أن انصرف الجميع: كم كلفتك هذه التمثيلية التى اعترف أنها كانت متقنة؟

قالت: حوالى ألف جنيه... ولكنك سترى مفعولها ومردودها حالاً... كل ناقد من هؤلاء يكره خمسة شعراء على الأقل، وهو فى حاجة لظهور شاعر جديد، عند ذلك يجد الفرصة لاغاظتهم بأن يمدحه.. أننى أريد فقط أن أعطيك درساً عملياً فى أهمية علم التسويق.

قلت لها: ولكن يا زوجتى الحبيبة، ما تقولينه ليس شعراً.

فردت بدون استياء: أعرف ذلك، وهم أيضاً يعرفون، ولهذا السبب وحده، سيلمعوننى ويقدموننى للقراء، سيشنون حملة كبيرة من أجل تنصيبى شاعرة كبيرة، سيقولون بإلحاح هذا شعر عظيم وهذه شاعرة كبيرة. عند ذلك سيصدقهم الناس. الناقد متوسط القيمة يحب غير الموهوبين، لأنه لا يخشاهم، ويشعر فى وجودهم بأنه جبل، بينما المبدع الحقيقى يشعره بأنه مجرد حجر صغير ملقى فى شارع الفن. لا يحب

المبدع العظيم سوى الناقد العظيم هؤلاء قلة لا أهمية لها على المستوى العملي... وهذه النظرية أيضاً يعرفها علم التسويق حيث القاعدة الأساسية هي، حسن السوق ولا حسن البضاعة، ليس مهما جودة البضاعة، المهم هو جودة السوق.. نشاطه.. فاعليته.

وظهر ديوان زوجتي الأول في السوق، وأصبحت أراها نادراً، ففي كل ليلة، هي تلقي بقصائدها في احتفال ما، أو ندوة ما، داخل البلاد أو خارجها. وعندما لا تكون هناك ندوات ينشغل البيت في المساء بجلسات التنويم المغناطيسي، أقصد دعوات العشاء، لدرجة أن السفرجية الأربعة أصبحوا يقيمون في البيت شبه إقامة دائمة.

ذات ليلة، قالت لي بصوت مجهد وملامح مرهقة: أنا متعبة، أريد أن أنام، ومطلوب مني غداً أن ألقي قصيدة جديدة، وليس لدي وقت لكتابتها، هل أطمع أن (تقرضني) قصيدة من قصائدك غير المنشورة.

أعطيتها القصيدة، ومنذ تلك اللحظة أصبحت (تقترض) مني قصائدي. لا بأس، إن قرض الشعر واقتراضه أمر واحد تقريباً.

لقد وزع ديوانها الثاني الذي اقترضت مني كل قصائده عشرات الآلاف. وهذا أمر يسعدني بالفعل، ليس من المهم أن تظهر أشعاري باسمي، المهم أن تصل للقارئ. أمر وحيد أحزنني اليوم، كتب أحد النقاد عنها يقول: وهي متزوجة من مسئول كبير يكتب الشعر أيضاً.

أيضاً.... ؟

هل جاء الوقت الذى يقال عنى إننى «أيضاً» أكتب الشعر؟

لقـد تعلمت وتفـهـمت ووعـيت وأدركت وعـرفت الدرس جـيـداً يا زوجتى العزيزة، وكم هو قاس، كم هو قاس.

المحتويات

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

رقم الإيداع بدار الكتب ١١٧٦٩ / ٩٩

I.S.B.N 977 -01-6416-X



المعرفة حق لكل مواطن وليس للمعرفة سقف ولا حدود ولاموعد تبدأ عنده أو تنتهى إليه.. هكذا تواصل مكتبة الأسرة عامها السادس وتستمر فى تقديم أزهار المعرفة للجميع. للطفل ـ للشاب ـ للأسرة كلها. تجربة مصرية خالصة يعم فيضها ويشع نورها عبر الدنيا ويشهد لها العالم بالخصوصية ومازال الحلم يخطو ويكبر ويتعاظم ومازلت أحلم بكتاب لكل مواطن ومكتبة لكل أسرة... وأنى لأرى ثمار هذه التجربة يانعة مز[illegible] بأن مصر كانت ومازالت وستظل وطن الفكر المتحرر [illegible] والحضارة المتجددة.



سوزان مبا[illegible]



مكتبة الأسرة

١٢٥ قرشاً

